الفصل الأول

الهجرة.. أحداث وعبر

obeikandl.com

obeikandl.com

(1)
خَلوة فكريَة مع الهجرة النبويَة

هذه دعوة لكل من أراد أن يَرقى تفكيره، وينضج فكره، وتنقح خواطره.. دعوة لصحبة رسول الله ﷺ في هجرته المباركة، والتجول في أروقتها، والتفكر في أرضها، والسياحة في سمائها، ففيها غذاء الفكر، وفيها دواء السقم، وهي للمُحِبِّ شفاء.

لقد كانت هجرة النبي ﷺ ولا زالت كتابًا حيًّا يُقرأ، وتاريخًا خالدًا يُدَرَّس، وقدوة مثالية تُتَّبَع، يرقى معها تفكير الإنسان إذا عاش في رحابها وخلا بها خلوة خالصة يبغي منها تجديدَ إيمانه وإصلاح حياته، إنها خلوة المحب بحبيبه؛ حتى تقوى روحه وينمو عقله ويثبت قلبه ويشتد ساعده، خلوة له منها لفكره الغذاء، ولتفكيره النضج والنماء.

لذا؛ فإن على المسلم أن ينظر صادقًا في هذه الهجرة المباركة نظرَ عبَر وانتفاع، فهي ليست حدثًا عابرًا كبقية الأحداث. إنها تاريخ أمّة وخاتمة رسالة، ومجيء حق وزهاق باطل، هداية أرواح وتربية وبناء، تأليف قلوب وبذل وعطاء، من يعِشْ معها يجد بين ثنايا أحداثها العلاج الشافي والجواب

الكافي، فكم فيها للفكر من غذاء وقوة، ونشاط وصحة، وكم فيها من علاج لأسقامه ليشفى ويستقيم.

ألا فليراجع كلٌّ منّا نفسه ويختبر أفكاره ويقيّم مفاهيمه، وليُعِد التفكير من جديد في أحداث هذه الهجرة بما يناسب حاله ومقامه، فسيجد فيها هدفه ومبتغاه.

ليتني فيها جذعًا حين يُخرجكَ قومك

ولعلنا نعيش معها من البداية وذلك الحدث العجيب؛ حيث السيدة خديجة رضي الله عنها، وابن عمها ورقة بن نوفل وحديث مع النبي ﷺ حين نزل عليه الوحي، فرجع إليها يرتجف (فقال: "زملوني زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال: يا خديجة ما لي، وأخبرها الخبر، وقال: «قد خشيت على نفسي»، فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكَل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخو أبيها، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى؛ فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا

obeikandl.com

(حيًّا) حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجيّ هم؟» فقال ورقة: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)[1].

قبل الهجرة

وقد عاش النبي ﷺ في مكة صادقًا أمينًا، لم تؤخذ عليه كذبة واحدة، لم يخُن ولم يغشّ قط، سيرته مع الجميع تشهد بحسن خلقه وكريم فعاله، ألم يكونوا يلقبونه الصادق الأمين؟ يقولون هذا الأمين، جاء الأمين، رضينا بالأمين.. إلى أن بُعث ﷺ نبيًّا رسولًا، فتبدّل حالهم وانتكسوا، وتضاربت أقوالهم فيه واختلفوا! وإذا هم يصفونه بالسحر والكذب، كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾[2]. ويقولون إنه شاعر ويتهمونه بالجنون، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾[3]. يقولون ذلك وهو الكامل المعصوم ﷺ.

وها هو الحبيب ﷺ، إنه قائم بينهم يدعوهم إلى الإيمان بشتى الوسائل وأحسن الطرق، يدعوهم بالترغيب والترهيب، وبالتشويق والتخويف، وظل على

(1) (صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، ج6).

(2) (سورة ص، الآية: 4).

(3) (سورة الصافات، الآية: 36).

ذلك سنين عددًا، يدُلهم على الهداية بصبر وحكمة وموعظة حسنة ودفع بالتي هي أحسن، أوذي أصحابه أمام عينيه، فصدق عليهم قول ربنا سبحانه: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾[1]، وهو لا يملك دفع الضر عنهم، إلا أن يحثهم على الصبر والتصبر: «اصبروا آل ياسر، موعدكم الجنة»[2].

تحمّل الأذى فلم يجزع أو ييأس، وعُودِيَ فما انتقم، قالت له عائشة رضي الله عنها: (هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قولَ قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملكَ الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا»[3].

---

(1) (سورة آل عمران، الآية: 146).

(2) (الراوي: عثمان بن عفان، المحدث: الهيثمي، المصدر: مجمع الزوائد، وصححه الألباني).

(3) (صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ونادوا يا مالك، رقم الحديث: 3059، ص1180).

كلمة واحدة

وقد ظل النبي ﷺ معهم في مكة ثلاث عشرة سنة من عمر الرسالة، دعاهم إلى الله سرًّا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، كان حريصًا على هدايتهم أشد الحرص، حزينًا على عدم استجابتهم غاية الحزن، فيتنزل عليه القرآن ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[1] وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من المشركين، كما قال تعالى ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾[2]، وكقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[3] أي: قاتل نفسك ومهلكها مما تحرص وتحزن عليهم.

وعلى قدر حرصه عليهم استقبلوا دعوته بالجحود والإيذاء، وقابلوا صبره بالتهكم والاستهزاء، وحبه بالبغض والعداء؛ حيث تعطلت عندهم آلات الإبصار وانطفأ نور البصيرة، فقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[4].

كان يدعوهم إلى كلمة سواء، عليها مدار صلاحهم وصلاح حالهم، لكنهم ناصبوه العداء.. كلمة ضرب الله لها مثلًا مشوقًا في القرآن، فقال:

---

(1) (سورة الشعراء، الآية: 3).

(2) (سورة فاطر، الآية: 8).

(3) (سورة الكهف، الآية: 6)

(4) (سورة الأنفال، الآية: 32).

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[1] قال ابن عباس: إنها شهادة أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد وابن جريج: الكلمة الطيبة: الإيمان[2].

لكن مشركي مكة أصروا على عنادهم، وعطلوا عقولهم وجوارحهم عن النظر والتفكر في هذه الكلمة الطيبة، وتعصبوا لرأيهم وفكرهم وكبريائهم، وجاههم وسلطانهم، وحسدهم وبغيهم، وتقليدهم الآباء في باطلهم، فأخذتهم العزة بالإثم، وما أعطوا أنفسهم الفرصةَ للتخلص من كل ذلك، وهذا هو التعصب الممقوت، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (مرض أبو طالب فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية. قال: كلمة واحدة. قال: يا عم، قولوا لا إله إلا الله. فقالوا: إلهًا واحدًا!! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. قال: فنزل فيهم القرآن ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ..﴾ إلى قوله ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾[3].

(1) (سورة إبراهيم، الآية: 24)

(2) (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج9، ص314).

(3) (سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة ص، رقم الحديث: 3232، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح).

«فاصبر لحكم ربك»

روى عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: (بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمعُ قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله، حتى إذا سجد، وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلقٌ إلى فاطمة عليها السلام، وهي جويرية، فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسُبّهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش. ثم سمَّى: اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد». قال عبد الله: فوالله، لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله – ﷺ: وأتبع أصحاب القليب لعنة)[1].

وبرغم الإيذاء الشديد الذي تنوعت أساليبه وتعددت أشكاله واختلفت أوقاته؛ إلا أن الله تعالى أمرَه بالصبر والثبات والاستمرار في الدعوة، حتى

(1) (صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب سترة المصلي، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئًا من الأذى، رقم الحديث: 498).

obeikandl.com

تقوم عليهم الحجة وتبلغهم الرسالة، وتلك هي مهمته ﷺ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾. و﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ..﴾ والبلاغ يحتاج لزاد، ومن هنا كانت تتنزل عليه الآيات ترشده وتقويه وتثبته.. ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[1]. أي (فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة، واصبر على أذى قومك لك وتكذيبهم ولا تعجل ولا تغاضب، فلا بد من نصرك، فإن الله سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة. وقال قتادة: إن الله تعالى يعزي نبيه ﷺ ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت[2]. وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى – وهي قرية من أرض الموصل – فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث[3].

(1) (سورة القلم، الآية: 48)

(2) (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج18، ص233، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج8، ص201).

(3) (تفسير ابن كثير، ج5، ص366).

(2)
المؤامرة

ظل النبي ﷺ في مكة يرسي قواعد التوحيد بدعوته إلى شهادة لا إله إلا الله وأنه رسول الله، كانت هذه الكلمة ولا زالت قولًا واعتقادًا هي مفتاح الإيمان بل هي الإيمان نفسه، وما عداها تابعٌ لها كثمرة من ثمراتها. لذا فقد حاول معهم بشتى الطرق السلمية، وكان حريصًا على أن يبني هذا الأساس فيهم أولًا، ويرسي في قلوبهم قيمًا ومفاهيم لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، ليكمل بقية البناء على قواعد متينة وأسس ثابتة، إنه يعلمنا ما يسمَّى الآن بفقه الأولويات، وفقه الواقع، فواقعهم كان يعجُّ بالوثنية والشرك، فكان المدخل الرئيس إلى عبادة الله وحده هو شهادة التوحيد الخالصة، ثم يأتي العمل بمقتضاها. وقد استغرق ذلك من نبينا ﷺ زمنًا طويلًا إذ استمر طيلة ثلاث عشرة سنة، وهو على هذا الحال داعيًا إلى الله، حيث آمن به من آمن، فنال شرف الصحبة والنصرة على المستوى الفردي، كما صدّ من صدّ فحُرم.

لذا؛ فلا بد لكل داعية أن يبدأ من حيث بدأ رسول الله ﷺ، وألا تشغله سفاسفُ الأمور عن معاليها، بل يجب أن يدعو إلى دخول الإسلام من بابه أولًا، ويصحح العقيدة وينقيها مما يقدح فيها حتى يستقر الإيمان

في القلوب، ثم يتجول بعد ذلك في غرفاته وحجراته المختلفة التابعة له، وعليه ألا ييأس من طول المكث بين الناس داعيًا، وألا يترك العمل لقلة المستجيبين له، أو يستعجل الثمرة فينفر المدعوين ولا يبشرهم ويتأفف منهم أو يضجر، بل لا بد من الصبر عليها حتى تنضج، وقد قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[1].

شرف النصرة والمؤازرة

وعندما دعا النبي ﷺ أهل مكة قوبلت دعوته - كما ذكر في كتب السيرة - بالاستهزاء والتحقير، والإيذاء والتعذيب، وأوذي فيها - وهي بلده وأحب البقاع إلى ربه عز وجل - ومن المحزن حقًّا أن الذين آذوه كانوا من قومه وعشيرته كعمه أبي لهب، وكانوا من جيرانه وأهل بلده وهم من نشأ بينهم وترعرع وعاش على أعينهم صادقًا أمينًا، ومع ذلك فقد اشتد إيذاؤهم له، فعجبًا لهؤلاء القوم! ألم يأتمنوه على ودائعهم ونفائسهم دون غيره، فلماذا لم يصدقوه ويأتمنوه على الرسالة، أفيصدق معهم ويكذب على ربه، حاشاه أن يفعل ذلك، فهو كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[2].

---

(1) (صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب...، رقم الحديث: 3498).

(2) (سورة النجم، الآية: 3).

لقد فات هؤلاء شرف النصرة والمؤازرة، وإن تحوَّلَ بعضهم فيما بعد إلى الإيمان، كما لم يكن لرؤوس القوم منهم فضيلة السبق في احتضان النبي ﷺ ودعوته، كأبي سفيان، وأبي جهل، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، بل ها هو أبو جهل يؤكد إصراره على الكفر حسدًا وبغيًا، فيقول (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه)[1].

فلما تولَّوا عنه ولم ينصروه استبدل الله تعالى بهم الأنصار الذين لم يكونوا من أهل مكة، لكنهم صاروا خيرًا منهم لسرعة استجابتهم ونصرهم النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين.

وهنا يظهر فضلُ السبق في الاستجابة لله ورسوله، وفضلُ المسارعين إلى اعتناق دعوة الإيمان، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ....﴾[2]. أي إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحدوه[3]. قال السدي: ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر[4].

---

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، أول من جهر بالقرآن).

(2) (سورة الأنفال، الآية: 24).

(3) (تفسير القرطبي، ج7، ص348).

(4) (تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج4، ص35).

فعلى كل منا أن يعمل لله شكرًا على نعمة الإسلام التي حباه بها، وأن يدعو غيره إليها قولًا وفعلًا وخلقًا وسلوكًا؛ ليكون أهلًا لهذا الشرف العظيم، ولا سيما من كان في موقع قيادة ورياسة وتأثير واقتداء، وإن لم نفعل سلب منا هذا الشرف ونال غيرنا ما تخاذلنا نحن عنه.. قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[1].

المكر والمؤامرة

ولما كان عدد المؤمنين في نماء، وازداد عمر دعوة النبي ﷺ وصمد أولادها أمام كل العقبات، وجد المشركون أنهم في خطر فجُنّ جنونهم، وتعجبوا من استمرار هذه الدعوة وقوتها رغم كل جهود القمع والإرهاب التي يمارسونها ضد أنصارها، وقد حاولوا من قبل أن يثنوا النبي ﷺ عنها بشتى الوسائل فلم يفلحوا، وقاموا بحملات التفتيش عن الإيمان في قلوب أتباعه فلم ينجحوا، ووقفوا لهم بالمرصاد وتفننوا في تعذيبهم، فارتدت نصالُ كيدهم إلى صدورهم من حيث لم يحتسبوا، إذ ثبت من المؤمنين مَن ثبت، واستشهد منهم مَن استشهد، وهاجر مَن هاجر إلى أرض الحبشة ومِن بعدها إلى يثرب؛ ينشدون العدل والعدالة عند من لا يظلمهم ولو كانوا أغرابًا عن تلك البلاد.

(1) (سورة محمد، الآية: 38).

obeikandi.com

فلما سُقط في أيدي هؤلاء المشركين؛ قرروا أن يزيدوا من مقدار جرعات الكيد المتواصلة ضد النبي ﷺ ومَن آمن، وألا يترددوا أمام طوفان هذه الرسالة وقد تأكدوا أنه أقوى منهم وأنه سيجرف معه ما هم عليه من شرك ووثنية ووجاهة ورياسة. فاتخذ مكرُهم أسلوبَ الجريمة والخيانة واتَّسم عملهم الإجرامي بالعمل في الظلام، والتحالف مع الشيطان وقوى الشر التي يدعمها لتتحقق مآربهم ومطامعهم، تتحقق ولو على دماء وأشلاء غيرهم؛ لتبقى كراسيهم الفانية! ولو تنازلوا عن بعض القيم التي لا غنى للمرء عنها كإنسان! ولو أن يغضوا الطرف عن أبسط حقوق الإنسان في حرية اختيار العقيدة التي يتعبد الله تعالى بها.

ومن هنا بدأ التخطيط منهم لقتل النبي ﷺ؛ ليغتالوا فيه الإسلام ودعوته، لكن هيهات هيهات أن يتحقق لهم ما أرادوا، فالله حافظٌ نبيَّه وعاصمه من الناس، والله ناصرُ الحق وأهله وإن طال ليل الظالمين، وخاذلُ أهل الباطل وإن كسبوا جولة أو جولات.

إن في هذا درسًا عظيمًا على طول الزمان لكل داعية إلى الله، ولكل صاحب حق يدعو إليه أو يطالب به، الثبات الثبات، فإن هناك عقبات وعقبات، فسيقابل في دعوته من يحاول وأدها من أول لحظة، بل ويكبر الكيد لها متى ظهرت باكورة ثمرها، ويزداد كلما زاد أتباعها، على المستوى الفردي والجماعي، فأعداء الإصلاح يتواجدون في كل زمان، وهم لا يتورعون عن الكيد والمؤامرة والتعذيب مهما تنوعت أشكاله سجنًا وضربًا

أو أذًى ونفيًا وقتلًا، فمرتكبو الجريمة أهدافهم واحدة وأساليبهم متشابهة، وكأنهم توارثوها فيما بينهم وتواصوا عليها!

التخطيط للجريمة

بدأ الطغاة من عتاة المشركين في مكة يخططون لأبشع جريمة، لم يكن الدافع لها ما كان بين قابيل وأخيه هابيل، وإن كان بينهما خيط رفيع يصل تلك الجريمة بما فعله قابيل تجاه أخيه ظلمًا وعدوانًا وحسدًا وبغيًا، وتمردًا على أوامر الله عز وجل الخالق العظيم، ليحمل قابيل وزره، ووزرَ من اقتدى به إلى يوم القيامة، كما قال النبي ﷺ: «ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها؛ ذلك بأنه أول من سن القتل»[1].

لقد تشاوروا في طريقة التخلص من النبي ﷺ، وتوالت الاقتراحات منهم، وكان الشيطان يشهد الجريمة ويخطط معهم ويبدي الرأي ويحلل ويفند، فلم يعجبه الحبس والسجن ولا إثخانه بالجراحات والضرب الشديد، ولم يوافق على النفي من بلده والإخراج والإبعاد والتغريب، وإنما أقنعهم بأن القتل هو الحل الذي يفرق دمه بين القبائل وهو طريق الخلاص المزعوم، فرفع القوم راية التسليم الخسيس ورضوا باقتراح إبليس.

عن قتادة قال: تشاوروا فيه ليلة وهم بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح

(1) (مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان...، رقم الحديث: 4112، وأخرجه ابن حبان في صحيحه).

فأوثقوه بالوثاق! وقال بعضهم: بل اقتلوه! وقال بعضهم: بل أخرجوه! فلما أصبحوا رأوا عليًّا رضي الله عنه، فرد الله مكرهم[1].

وقد ذكر الله تعالى قصة التخطيط لهذه الجريمة النكراء فقال لنبيه ﷺ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[2]. فهذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة فاجتمع رأيهم على قتله فبيَّتوه، ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج، فأمر النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله عز وجل أن يعمي عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع على رؤوسهم ترابًا ونهض. فلما أصبحوا خرج عليهم عليّ فأخبرهم أن ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجا[3].

«ويمكرون ويمكر الله»

لم يستح المشركون من الله خالقهم وهم يتآمرون على عبد من عباده، بل أفضل خلقه ﷺ، «فإن الحياء من الإيمان»[4]. و«الحياء لا يأتِ إلا

(1) (تفسير الطبري، ج13، ص496).
(2) (سورة الأنفال، الآية: 30).
(3) (تفسير القرطبي، ج7، ص355).
(4) (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، رقم الحديث: 24).

بخير»[1]، والنبي ﷺ يقول: «إذا لم تستح فافعل ما شئت»[2]. لذا فقد اتفقوا على قتله؛ حيث لا إيمان لهم يثمر هذا الحياء.

لم يقلل من عداوتهم تجاه رسول الله ﷺ طول مكثه بينهم، فلم يحفظوا له أبسط الحقوق من حفظ الجوار وكرم الأخلاق وحسن العشرة! وها هم ينبذون كل تلك القيم وراء ظهورهم؛ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

والمكر: التدبير في الأمر في خفية.. فيمكرون بالنبي ﷺ «ويمكر الله» بهم بتدبير أمر نبيه بأن أوحى إليه ما دبروه وأمره بالخروج. كما أن المكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون[3].

وهنا تتجلى القدرة الإلهية لكل ذي عقل، فمن الذي أخبر النبي ﷺ بالمؤامرة، ومن الذي أمره أن يخرج ويهاجر تاركًا من ورائه رؤوس الكفر ورموزه تتجرع مرارة العجز، قد ذهب كبرياؤها وتحطم على أبواب الغار، ومن الذي أحبط مكرها وأذهب هيبتها وأذلها.. إنه الله سبحانه وتعالى الذي يكسر أعناق الجبابرة إذا ما تطاولت على عباده بغير حق، وهو الله تعالى حافظ عباده المؤمنين أهل الحق العاملين به الداعين إليه،

(1) (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الحياء من الإيمان، رقم الحديث: 24)

(2) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، إذا لم تستح فافعل ما شئت، رقم الحديث: 4797، وصححه الألباني).

(3) (تفسير القرطبي، ج7، ص355).

القائل في كتابه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. ينصرهم نصرًا عزيزًا مؤزرًا في الدنيا والآخرة كما وعد سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[2]. (وقد أورد أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى سؤالًا؛ فقال: قد علم أن بعض الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرًا كإبراهيم وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين، أحدهما: أن يكون الخبر خرج عامًّا والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة. الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم)[3].

(وعن السدي: قد كانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون، وذلك أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتى يبعث الله قومًا فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوا منهم. والوجه الآخر: أن يكون هذا الكلام على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين، والمراد واحد، فيكون تأويل الكلام حينئذ: إنا لننصر رسولنا محمدًا ﷺ والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد)[4].

---

(1) (سورة الروم، الآية: 47).

(2) (سورة غافر، الآية: 51).

(3) (تفسير ابن كثير، ج7، ص150)

(4) (تفسير الطبري، ج21، ص401).

(3)
القرار الصعب

لم يكن لنبي الله ﷺ أن يتخذ قرار الهجرة من تلقاء نفسه دون توجيه من ربه عز وجل الذي بعثه وأرسله بشيرًا ونذيرًا، وهو الذي سينصره ويظهر دينه ولا ريب.. ولأنه نبي مرسل؛ فقد امتثل أمر ربه له بالهجرة، وها هو الحبيب ﷺ يستعد لمغادرة بلده التي نشأ في أحضانها وتربى بين ربوعها، إنها الأرض الطيبة التي قال عنها «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ، والله لولا أني أُخرجت منك ما خرجت»[1].

سيخرج رسول الله ﷺ منها بأمر الله تاركًا كل شيء، البيت والأرض، الحصى والتراب، الأهل والصحاب، بل ونسمات الهواء التي يستنشقها بعبقها المميز، إنه سيخلف وراءه ذكرياتِ طفولته وأحاديثَ شبابه وأحداثَ بعثته، وما أشبه مفارقة الوطن بمفارقة الروح الجسد، ولا سيما من أكره على الخروج منه وأخرج رغمًا عنه.. وكم في تلك الأرض من ذكريات وذكريات، وكل ما فيها يمثّل في النفس مكوناتِ ذلك الوطن الذي يكبر حبه في قلبه مع كل لحظة تمر عليه من عمره الشريف، وكما قيل: إن حب الوطن من الإيمان.

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب فضل مكة، رقم الحديث: 3108، وصححه الألباني).

ففي مكة نما النبي ﷺ وترعرع وسط أهله وأحبابه الذين كانوا له بمثابة الأب والأم بعد اليتم والحرمان، حيث الجد عبد المطلب وحنانه، والعمّ أبو طالب وكفالته، وفاطمة بنت أسد زوجة العم، والأم بعد فقد الأم، وأبناء العمومة الإخوة والأصدقاء.

وفي مكة تزوج بسيدة النساء الطاهرة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -، وعاش معها عمرًا، فكانا خير زوجين، تذوق معها طعم الحب والوفاء، والنصرة والعطاء. وفي مكة رُزق بفلذات الأكباد زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله والطيب، وتذوق لذة الأبوة وعاشها.

وفي مكة، كانت الخلوة مع الله والعبادة الخالصة له والانقطاع للذكر في غار حراء، وفيها نزل عليه الوحي من السماء.

وفي مكة، كانت باكورة دعوته إلى الله، حيث آمن به خير الرجال أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وحمزة وغيرهم. وفيها أيضًا أوذي وكُذّب من أقرب الناس إليه - عمه أبي لهب - ورأى أصحابه وأتباعه وهم يُعذبون كبلال وعمار ويستشهدون كياسر وسمية.

سيخرج رسول الله ﷺ من أحب أرض الله إلى الله، وكم يعز عليه البعد عن بيته المحرم، لكن عزاءه الكبير هو قول الله تعالى له ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]. قال ابن عباس: أي لرادك إلى

(1) (سورة القصص، الآية: 85).

مكة كما أخرجك منها، وعن مجاهد: إلى مولدك بمكة، وقال القتبي: معاد الرجل بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود. وقال مقاتل: خرج النبي ﷺ من الغار ليلًا مهاجرًا إلى المدينة في غير طريق مخافة الطلب، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة، فاشتاق إليها، فقال له جبريل: إن الله يقول: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد» أي إلى مكة ظاهرًا عليها[1].

فكانت هذه البشارة معينةً للنبي ﷺ على الصبر وتخطي الأحزان، والاستهانة بكل ما يلاقي من معاناة، فما خرج من مكة إلا ليعود إليها فاتحًا منتصرًا، قاهرًا لأعدائه، مطهرًا إياها من رجس الأوثان التي تحيط بها من كل جانب.

ربنا الله

سيتحول النبي ﷺ عن مكة بجسده فقط، والقلب لا زال معلقًا بالبيت العتيق، لكنه - والحمد لله - سيفارق مخالفيه ومكذبيه ومريدي قتله، لذا فقد خرج مستخفيًا عن أنظارهم مهاجرًا إلى الله عز وجل، وفي سبيل الله، لا يجذبه أو يشده للبقاء شيء، هاجر بحثًا عن تربة صالحة لغراسه وبذره، ولم يثاقل إلى الأرض. هاجر وما اقترف إثمًا في حق هؤلاء المشركين حتى يرسلوا على دعوته عواصف العناد المدمرة، وأعاصير التكذيب العاتية، فالإيمان عندهم جريمة، وحب الله وعبادته وحده لا تروق لهم،

(1) (تفسير ابن كثير، ج6، ص260).

والحرية الشخصية حق لهم وحدهم، واختيار الإنسان عقيدته التي يتعبد بها ربه مكفولة للجميع إلا للنبي ﷺ وصحبه من المؤمنين! أيّ عدالة يتشدقون بها، وأيّ عدل يدّعون وهم من يسعون في الأرض بالإفساد بصد النبي ﷺ ومن معه عن اعتناق الإسلام، فضلًا عن الجهر به والدعوة إليه، وأيّ إنصاف يزعمون وهم من يفرضون على الناس عبادة الأصنام والشرك والوثنية، ويسومون الضعفاء منهم سوء العذاب إن لم يسمعوا ويطيعوا؟!

لم يتورعوا عن منع النبي ﷺ تبليغ دعوته التي تقول ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]. وها هم يصلون إلى قمة الإفساد فيتآمرون على وأد الرسالة رغم مرور عدة سنوات عليها بينهم، لم يلنْ لهم قلب، ولم تدمع منهم عين، ولم يخشع لهم طرف، صرفوا جلَّ وقتهم في حربها والصد عنها، بل ها هم أولاء يتفقون على قتل صاحبها عليه الصلاة والسلام فيلجئوه للخروج.. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[2]. قال العوفي عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمدًا وأصحابه ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له. كما قال تعالى «يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم»[3].

(1) (سورة البقرة، الآية: 256).

(2) (سورة الحج، الآية: 40).

(3) (تفسير ابن كثير، ج5، ص435).

لقد جاوزا الحدّ من العناد فصاروا ضد دعوة النبي ﷺ وناصبوه العداء، ولم يمدوا أيديهم ليغترفوا من رحمة الله المهداة المرسلة إليهم، بل لقد وصل من جحودهم ونكرانهم أن قال أبو جهل: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، فقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]. لكن المشركين لم يقدروا هذه النعمة حق التقدير، ولم يعبؤوا بها ويحافظوا عليها، بل ازدادوا طغيانًا وكفرًا، فلما استنفدوا مرات الرسوب في امتحان الإيمان بمكة وأخفقوا في نتائج الاختبار، الذي خاضوه مع هذه الرسالة الربانية، وحاولوا التخلص من نبي الرحمة؛ كان الأمر الإلهي والإذن الرباني لرسول الله ﷺ بالخروج من مكة إلى يثرب؛ حيث الإيمان والنصرة. فكان نصيبهم الحرمان والخسارة بخروج النبي ﷺ من بين أظهرهم مهاجرًا عنهم. إنهم الآن في خطر وعلى حافة الهاوية إن لم تدركهم رحمة الله تعالى ويمنّ عليهم بالهداية.

قال ابن عباس: لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي ﷺ منها والمؤمنون؛ يلحقوا بحيث أمروا[3]. وقال: كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار[4].

(1) (سورة الأنفال، الآية: 32)

(2) (سورة الأنفال، الآية: 33).

(3) (تفسير القرطبي، ج7، ص357).

(4) (تفسير ابن كثير، ج4، ص48).

إلى يثرب حيث الإيمان والنصرة

وها هو نبي الله ﷺ يعدّ عدته للهجرة، وسينتقل بفضل الله من مكة إلى أرض أخرى مشتاقة لرسالته، حاضنة لدعوته، ناصرة لصحابته، أرض سيدخلها النور بمقدمه، وسيكون لها في تاريخ الإسلام شأنٌ وأي شأن، والجزاء من جنس العمل.. فسيخلد الله تعالى ذكرها وذكر أهلها أن احتضنت خير البشر، وآوت أحب خلق الله إلى الله عز وجل، بل سيحنّ الناس إليها بكل ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، وسيَفِدون عليها من كل حدب وصوب، يشدون رحالهم لزيارة مسجده ﷺ والصلاة فيه، ويتنسمون عبير هوائها الطيب، ويعيشون بالذاكرة والوجدان لحظات تنزل الوحي فيها على النبي ﷺ، ويرون بعين قلوبهم صحبه الكرام وهو ينافحون دونه ويجاهدون معه ويستشهدون فداءً له، فالكل يفديه بنفسه وروحه.. سيذكرنا ثراها الطاهر بهؤلاء الأنصارالأبرار الذين آووه ونصروه واتبعوه وآزروه، هو ومن هاجر من المؤمنين إليهم، تراهم وهم يتسابقون فيمن ينال شرف استقبال رسول الله ﷺ واستضافته في بيته.

أفضل صاحب.. وخير رفيق

اختار الله تعالى لنبيه ﷺ في هجرته إلى يثرب خيرَ صاحب وأحسن رفيق، اختار له أبا بكر، وقد علم أنه أفضل من يقوم بمهمة الرفقة والصحبة في طريق الهجرة معه. لينال شرفًا ما بعده شرف، ويسبق

الجميع بذلك كما سبق في الإيمان والنصرة. فأبو بكر ليس كغيره من الرجال، إنه أمّة وحده.. يقول عنه عمر رضي الله عنهما: (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم)[1]، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: «خير أمتي بعدي أبو بكر وعمر»[2]. إنه أول من آمن من الرجال، ولم يأل جهدًا من نفقة أو نصح أو تضحية في سبيل الله، وقد ذكر النبي ﷺ فضل أبي بكر صاحب هجرته.. فقال: «إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام...»[3]. وبشره وقال «أبو بكر في الجنة»[4]، وذكر فضائله فقال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر»[5]. وقال: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ما خلا النبيين والمرسلين»[6]

---

(1) (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان)

(2) (أورده ابن عساكر في تاريخ دمشق، وحسنه السيوطي).

(3) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة، رقم الحديث: 3691).

(4) (مسند أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند باقي العشرة المبشرين بالجنة، أبو بكر في الجنة...، رقم الحديث: 1678، وصححه السيوطي)

(5) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر، رقم الحديث: 3692، وأخرجه ابن حبان في صحيحه).

(6) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، هذان سيدا كهول أهل الجنة...، رقم الحديث: 3666، ص571، وصححه الألباني).

وتحكي السيدة عائشة - رضي الله عنها - قصة هذا الاختيار المبارك، فتقول: (لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجرًا قبل الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة - قبيلة موصوفة بجودة الرمي - فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يَخرج ولا يُخرج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، فارتحل ابن الدغنة، فرجع مع أبي بكر، فطاف في أشراف كفار قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج، أتُخرجون رجلًا يكسب المعدوم، ويصل الرحم ويحمل الكَلّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق. فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وأمَّنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مُر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصَلّ، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا. قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدًا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاء، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين،

فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا؛ فأته، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر، فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. قال أبو بكر: إني أرد لك جوارك، وأرضى جوار الله. ورسول الله ﷺ يومئذ بمكة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين». وهما الحَرتان[1]، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعضُ من كان هاجر إلى أرض الحبشة، وتجهز أبو بكر مهاجرًا، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي». قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر[2] أربعة أشهر)[3].

(1) (الحَرتان: تثنية حَرة، وهي أرض ذات حجارة سوداء كأنها احترقت بحر النار).

(2) (السمر: نوع من الشجر).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، رقم الحديث: 2176، ص804).

(4)
كانت الهجرة نصرًا

أن يُمنَع من تبليغ رسالة ربه وهو رسول، وأن يَطلب النصرة وهو نبي، وأن يَبحث عن المأوى وهو في موطنه؛ لهُوَ أمر يستحق النظر ويستحث التفكير، ويهيج العواطف ويبعث على التأمل الكبير.

لقد وعد الله تعالى نبيه ﷺ النصر المبين، والعز والتمكين، فما باله الآن يبحث عن تلك النصرة سنين عددًا فلا يجدها، ويطلب المأوى زمنًا طويلًا فلا يجيبه أحد؟! وما له اليوم يدَع بلده وبيته متخفيًا ويخرج منه مطارَدًا يتعقبه المشركون، كلٌّ يريد جائزة الإمساك به حيًّا أو ميتًا؟! أليس هو بنبيّ مؤيّد من ربه؟! ألم يخبر الناس أنه على الحق؟! فلماذا لا يأتيه النصر على أعدائه سهلًا دون عناء، سريعًا بلا إبطاء؟!

هكذا يقول أصحاب القلوب المريضة، إن لم يكن علنًا ففي أنفسهم، وهذا ظنهم السقيم حيث تكون نار البلاء لهم فتنة تنقلهم إلى مزيد من الشك وسوء الظن بربهم - والعياذ بالله -، بدلًا من أن تطهرهم وتصقلهم ليتفكروا في أنفسهم ويعيدوا النظر من جديد فيما هم فيه، ويغيروا ما بها من مرض، ويحدث ذلك في كل عصر، فعند المحن تظهر المعادن وتطهر،

ويعرف زيفها وأصلها، كما حصل فيما بعد من المنافقين حين قالوا ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]. وذلك حين قال طعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير وجماعة نحو من سبعين رجلًا يوم الخندق: كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز[2]؟

أما المؤمن الحق فلا يزيده البلاء إلا قوة، ولا يتمخض إلا عن الصبر والثبات والإيمان واليقين، كما كان من المؤمنين قبل الهجرة من أمثال بلال وصهيب وخباب، وعمار وياسر وسمية، وكما كان من المؤمنين فيما بعد عند زلزلة الابتلاء بالأحزاب، فكان ما حكاه الله تعالى عنهم ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[3].

وقد ضرب لنا نبي الله ﷺ خير مثال يحتذى به، فما ضعف قط وما يأس، ما وهَن ساعة وما قنط،، والعبرة بالخواتيم والعاقبة بالنصر والخاتمة بالعز هي موعد الله له ولعباده المؤمنين، مصداقًا لقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.[4]

---

(1) (سورة الأحزاب، الآية: 12).

(2) (تفسير القرطبي، ج14، ص136).

(3) (سورة الأحزاب، الآية: 22).

(4) (سورة النور، الآية: 55).

وكان النبي ﷺ يربي أصحابه على عدم استعجال النصر ويحثهم على الانشغال بأخذ أسبابه مع الانتظار حتى تنضج ثمرته ويأتي في حينه المقدر من عند الله بالعمل الجاد الدؤوب، والصبر على عوائق طريق الوصول إلى هذا النصر الغالي، ومن ثَم تتحقق البشارة.. يسوقها إليهم وإلينا مؤكدًا: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1]، وقال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»[2].

الأنصار.. والنصرة

وقد نال الأنصار من أهل يثرب شرفَ النصرة والصحبة لرسول الله ﷺ، فعَنْ جابر بن عبد الله الأنصاري: (أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتتبع الناس في منازلهم في الموسم، ومجنة، وعكاظ، وفي منازلهم من منى، يقول: «مَن يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي، وله الجنة؟». فلا يجد ﷺ أحدًا ينصره، ولا يؤويه، حتى أن الرجل ليرحل من مِصر أو من اليمن إلى ذي رحمه، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش، لا يفتنك. ويمشي

(1) (صحيح البخاري، كتاب المناقب، يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، رقم الحديث: 3416).

(2) (صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم الحديث: 2889، ص2215).

بين رحالهم يدعوهم إلى الله فيشيرون إليه بالأصابع. حتى بعثنا الله له من يثرب، فيأتيه الرجل فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبقَ دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، فائتمرنا واجتمعنا، فقلنا: حتى متى رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة، ويخاف؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا شِعب العقبة، فقال له عمه العباس: يا أهل يثرب. فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر في وجوهنا، قال: هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث. فقلنا: يا رسول الله، على ما نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، فلكم الجنة»)[1].

إلى المدينة

وقد (رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، فحذروا خروج الرسول ﷺ إليهم، وخافوا أن يكون قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون فاجتمع رأيهم - أخيرًا - على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابًّا جلدًا، ثم يُعطَى كلٌّ

(1) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 7012).

منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه؛ كي لا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعًا، وضربوا لذلك ميعاد يوم معلوم. فأتى جبريل - عليه السلام - رسول الله ﷺ يأمره بالهجرة، وينهاهُ أن ينام في مضجعه تلك الليلة)[1].

فأمر النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن ينام في فراشه، قائلًا له: «نم في فراشي، وتسجّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»[2].

وقد (غادر النبي ﷺ بيته في ليلة 27 من صفر سنة 14 من النبوة الموافق 12/ 13 سبتمبر 622م. وأتى إلى دار رفيقه- وأمنّ الناس عليه في صحبته وماله- أبي بكر رضي الله عنه. ثم غادرا منزل الأخير من باب خلفي، ليخرجا من مكة على عجل، وقبل أن يطلع الفجر... وكَمَنَا في الغار - غار ثور - ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد... وفي يوم الاثنين 8 ربيع الأول سنة 14 من النبوة- وهي السنة الأولى من الهجرة- الموافق 23 سبتمبر سنة 622م، نزل رسول الله ﷺ بقباء.. وأقام بقباء أربعة أيام، وأسس مسجد قباء، وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى، فلما

(1) (انظر فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الحادية عشرة، دار الفكر دمشق، 1991م).

(2) (السيرة النبوية لابن هشام، هجرة النبي ﷺ، ج1، ص483).

obeikandl.com

كان اليوم الخامس - يوم الجمعة- ركب بأمر الله له وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار- أخواله - فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل. وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة. ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ)[1].

(فدخلها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول.. وخرجت ولائد من بني النجار فرحات بمقدم النبي ﷺ وجواره لهن، وهن ينشدن: نحن جوار من بني النجار: يا حبذا محمد من جار)[2].

كانت الهجرة نصرًا.. وليست هروبًا

روى الترمذي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فنزلت ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾[3]. قال قتادة: «وقل رب أدخلني مدخل صدق: يعني المدينة»، «وأخرجني مخرج صدق: يعني مكة»[4]. وقال الضحاك: هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمنًا[5].

(1) (الرحيق المختوم للشيخ صفي الدين المباركفوري).
(2) (فقه السيرة، للبوطي).
(3) (سورة الأنبياء، الآية: 80).
(4) (تفسير ابن كثير، ج5، ص111)
(5) (تفسير القرطبي، ج10، ص281).

obeikandl.com

لقد كان خروج النبي ﷺ وهجرته إلى المدينة نصرًا وفتحًا، وإن بدا فرارًا وهروبًا، ولِمَ لا يعدّ نصرًا؛ وقد صار للمسلمين دولة تضمهم، ومأوى يؤويهم، وعصبة تحميهم، ودرع يقيهم، وقوة تذود عنهم؟ ولمَ لا تكون فتحًا؛ وقد فتح الله بها قلوب الناس فدخلوا في دين الله فرادى وجماعات؟ ألم تكن الهجرة وسيلة لنشر الإسلام وقيام دولته كما كان صلح الحديبية فتحًا مبينًا، وإن ظن بعض المؤمنين آنذاك غير ذلك. فما الابتلاء والتمحيص والإيذاء والتعذيب إلا بابُ النصر ومفتاح الفرج وثمن الظفر وطريق الفوز. وهذا ما تم لنبي الله ﷺ وصحبه الكرام حين صبروا على ما أوذوا في سبيل الله، وهذا ما كان لأهل النصرة والإيواء من الأنصار في المدينة حين آووا ونصروا رسول الله ﷺ دون غيرهم، فكانوا مع إخوانهم المهاجرين يمثلون الصفوة من البشر بعد الأنبياء.

obeikandl.com

(5)
يبكي فرحـًا!

أي رفعة تلك التي رفعه الله تعالى بها، وأي منزلة أنزله إياها وشرفه بارتقائها، لقد شارك في صنع هذه الأمة، وجاد بماله ونفسه في سبيلها، ما وهن وما ضعف، وما حزن لأجل نفسه أو خوفًا عليها أو ضنًّا بها على الموت في سبيل الله عز وجل، بل كان حزنه من أجل رسول الله ﷺ، وحبه الكبير له، فكانت له البشارة، وكان الفوز من نصيبه.

إنه رفيق رحلة الهجرة إلى المدينة - سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه - خير صاحب لأفضل نبي، وأفضل صديق لخير الرسل، له علينا وعلى الأمة جميعها فضائل أكثر من أن تحصى؛ فمنذ لحظة الميلاد الأولى للدعوة كان المنافح عنها بماله وجهده وخدمته، وقد كفلها وهي يتيمة، وأنفق عليها من حُرّ ماله وعظيم جهده وجُل وقته؛ لتنمو وتشب على يد نبي الله محمد ﷺ الداعي إليها، كما كان على استعداد أن يموت في سبيل حياتها وبقائها، وأن يفتقر لتغتني هي برجالها وأتباعها، وأن يضحي بنفسه فداءَ رسول الله ﷺ.

يبكي؛ فرحًا بالصحبة

كان أبو بكر يطمع أن يكون صاحب رسول الله ﷺ في هجرته، فمنّ الله عليه بتلك الصحبة المباركة.

قال ابن إسحاق: (وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق - رضي الله عنهما - وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: "لا تعجل؛ لعل الله يجعل لك صاحبًا"؛ فيطمع أبو بكر أن يكونه)[1].

وحين قال له النبي ﷺ (إن الله أذن لي في الخروج والهجرة) بكى فرحًا.. تقول عائشة رضي الله عنها: «فوالله ما شعرت قط، قبل ذلك اليوم، أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبي يبكي يومئذ»[2].

في الطريق

أما عن حال أبي بكر مع النبي ﷺ في طريق هجرتهما، فإنه لا يقل بذلًا عما سبق، إنه يبذل نفسه ليفدي النبي ﷺ بها دونما تردد، ويخشى عليه ما لا يخشى على نفسه، بل إنه يكاد يموت؛ فرقًا عليه أن يدركه المشركون الذين

(1) (وقفات تربوية مع السيرة النبوية، جمع وترتيب أحمد فريد).

(2) (السيرة النبوية لابن هشام، حديث هجرته ﷺ إلى المدينة، ج1، ص485).

obeikandl.com

يتسابقون على إحضاره حيًّا أو ميتًا، طغيانًا منهم وكفرًا، ونكرانًا وجحودًا، وتعصبًا وبغضًا، وكبرًا واستعلاء.

وها هي حكاية صحبته تجسدُ لنا حاله، وتروي لنا موقفَ هجرته حتى كأننا نراه عين اليقين، وتأخذنا إلى هذا المشهد الحيّ الذي انفرد به أبو بكر دون الناس جميعًا. فقد ذكر الحاكم في «مستدركه» عن عمر - رضي الله عنه - قال: (لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال:«يا أبا بكر، مالك تمشي ساعة بين يدي، وساعة خلفي؟». فقال: يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. فقال: «يا أبا بكر، لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟»، قال: نعم، والذي بعثك بالحق، ما كانت لتكون من مُلمة إلا أن تكون بي دونك، فلما انتهيا إلى الغار، قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ لك الغار، فدخل واستبرأه، حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرىء الحجرة، فقال: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرىء الحجرة، فدخل واستبرأها، ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل).

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن الحسن بن أبي الحسن البصري، قال: (انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلًا، فدخل أبو بكر - رضي الله عنه - قبل رسول الله ﷺ فتلمس الغار لينظر.. أفيه سبع أو حية يقي رسول الله ﷺ بنفسه)[1].

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، قصة الرسول ﷺ مع أبي بكر في الغار، ج1، ص487).

ما صحب الأنبياء مثل أبي بكر

وقد ذكر الله تعالى هذه الصحبة، وأثبتها لأبي بكر في القرآن الكريم؛ فقال عز وجل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. وقيل: فقد نصر الله نبيه بصاحبه في الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه، وبوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله. قال الليث بن سعد: ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر الصديق. وقال سفيان بن عيينة: خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله: «إلا تنصروه»[2]. وفي الصحيح عن أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق حدثه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما»[3].

---

(1) (سورة التوبة، الآية: 40).

(2) (تفسير القرطبي، ج8، ص74).

(3) (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم الحديث: 2381، ص 1854)

وروي أيضًا أنهم لما عمي على المشركين الأثر جاءوا بالقافة، فجعلوا يقفون الأثر حتى انتهوا إلى باب الغار، فعندما رأى أبو بكر - رضي الله عنه - القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة. فعندها قال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن؛ إن الله معنا»، ألا ترى كيف قال لا تحزن ولم يقل لا تخف؟ لأن حزنه على رسول الله ﷺ شغله عن خوفه على نفسه، ولأنه أيضًا رأى ما نزل برسول الله ﷺ من النصب، وكونه في ضيقة الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، وكان أرق الناس على رسول الله ﷺ وأشفقهم عليه؛ فحزن لذلك. وقد روي أنه قال: نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار وقد تفطرتا دمًا، فاستبكيت، وعلمت أنه - عليه السلام - لم يكن تعود الحفاء والجفوة. وأما الخوف فقد كان عنده من اليقين بوعد الله بالنصر لنبيه ما يسكن خوفه[1].

أسرة مؤمنة مجاهدة

لقد اشتركت أسرة أبي بكر الصديق في أحداث هذه الهجرة المباركة، وشاركت في نجاحها، ولا غرابة في ذلك فإنها تنتمي إلى أول رجل آمن برسول الله ﷺ وتسير على طريق سيره.

قال ابن إسحاق: فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبا بكر بن

(1) (انظر الروض الأنف للسهيلي، خبر الندوة وهجرة الرسول ﷺ، الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار، ص317).

أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما[1].

جزاء الإحسان

أحب النبي ﷺ أبا بكر حبًّا كبيرًا، وقال: «لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذته خليلًا، ولكن أخوة الإسلام أفضل»[2].

وذكر فضائله وعدّدها وأثنى عليه الثناء الحسن، فقال: «رحم الله أبا بكر: زوجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالًا من ماله»[3]، وقال: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، قصة الرسول ﷺ مع أبي بكر في الغار، ج1، ص486).
(2) (صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر، رقم الحديث: 3457).
(3) (رواه الترمذي، رقم الحديث: 3714، وضعفه الألباني).

obeikandl.com

كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله»[1]، وبشره بالجنة فقال: «أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي»[2]. وقال: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين»[3]. وقال: «إن أهل عليين ليُشرف أحدهم على الجنة فيضيء وجهه لأهل الجنة كما يضيء القمر ليلة البدر لأهل الدنيا، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعَما» أي وهما أهل للتنعم به[4].

أين مكاننا من النصرة؟

ها هو الصاحب والرفيق لنبينا ﷺ في رحلة الهجرة إلى المدينة، سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، حمل همّ الدعوة على عاتقه، وجاهد في سبيل الله بماله ووقته ونفسه، كان صاحبًا وفيًّا لصاحبه مخلصًا أمينًا، فأثبت له الله هذه الصحبة في القرآن الكريم، وجزاه بإحسانه إحسانًا. فهل نتعلم منه آداب الصحبة، ووفاء الصداقة، وهل نأخذ منه دروسًا في البذل والعطاء والحب والإيثار، وهل نحسن اختيار أصحابنا وأصدقائنا

(1) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، رقم الحديث: 3661، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه).

(2) (سنن أبي داوود، رقم الحديث: 4652، وضعفه الألباني).

(3) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 6904).

(4) (أخرجه الألباني في ضعيف الجامع، رقم الحديث: 1840).

ليكونوا لنا عونًا على طاعة الله، وقد قال النبي ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[1]. وقال: «الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحًا خبيثة»[2]. وقال: «مثل الجليس الصالح مثل العطار إن لم يعطك من عطره أصابك من ريحه»[3].

وفي معناه قول القائل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي
فإن كان ذا شر فجنبه سرعة ... وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

وهل مع كل هذا نفكر ونتفكر في رحلة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وهجرته مع النبي ﷺ فنتزود منها؟

---

(1) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، الرجل على دين خليله، رقم الحديث: 4833، وحسنه الألباني)

(2) (صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، رقم الحديث: 1995).

(3) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 579، وصححه الألباني في صحيح الجامع).

obeikandl.com

(6)
إنهم الأنصار

إذا رأيتهم رأيتَ الخير مجسّدًا فيهم، وامتلأتْ نفسك بالإجلال والتقدير والحب لهم، إنهم من طراز فريد ونوع راق قلّ أن يوجد مثله في الدنيا، طراز حكى الله تعالى لنا عنه في كتابه الكريم ليكون لنا مثلًا وأسوة، فإذا تحدثت عن الإيمان وجدتهم إليه من السابقين، وإذا ذكرت التضحية والفداء كان لهم منها النصيب الأوفى، وإن أشير إلى الإيثار فثَمَّ هناك حيث يقيمون، فإنه غايتهم ومطلبهم، وخلقهم ومسلكهم. صغرت الدنيا في أعينهم فبذلوها رخيصة وقد ملكوها، فلم يغرهم زخرفُها أو يفتنهم بريقُها وهم يأخذون منها زادهم إلى الله عز وجل، ولم ينشغلوا بها وينصرفوا عن الغاية العظيمة التي عاشوا من أجل تحقيقها وماتوا في سبيلها. لقد ضربوا لنا أعظم مثال في صدق المحبة وتمام الاتباع لله ورسوله، فكانوا خير صحْب لخير نبي، وكفى بها منحة لهم.

مدحهم الله تعالى في قرآنه الخالد، فتتردد الآيات على صفحات ألسنتنا، وتتلى على مسامع قلوبنا ليل نهار بمدحهم وذكر فضلهم والترضي عنهم، فلقد شرَوْا أنفسهم وباعوها لله عز وجل، وقبل الله بيعهم وكان

ربحهم فيها وافرًا عظيمًا.. «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».. وكانت لهم البشارة الخالدة.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1].

إنهم الأنصار

إنهم أنصار رسول الله ﷺ من أهل المدينة.. الصدر الحاني الذي فتح ذراعيه لنبي الله ﷺ وللمهاجرين أصحابه، وهم الحضن الدافئ الذي استدفأ به وسط صقيع التكذيب حين جافاه قومه وأخرجوه، وهم القلب البار الكبير الذي كان عوضًا له عن عقوق المشركين من أهل مكة والطائف وغيرهم ممن كذبوه وآذوه. وقد سماهم الله تعالى بهذا الاسم (الأنصار) الذي يوحي بالنصرة ويدل على بذل القوة في نصرة الحق وأهله، وخلد ذكرهم في كتابه الكريم إلى أن يرث الأرض ومن عليها، ورضي عنهم وأرضاهم، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]. قيل لأنس بن مالك رضي الله عنه: أرأيتَ قول الناس لكم: الأنصار، اسم سماكم الله به أم كنتم تدعَون به في الجاهلية؟ قال: بل اسم سمانا الله به في القرآن[3].

(1) (سورة التوبة، الآية: 111).

(2) (سورة التوبة، الآية: 100).

(3) (تفسير القرطبي، ج8، ص158).

لقد ربح واللهِ بيعهم

وقد ضرب لنا الأنصار أعظم مثال في حب الله ورسوله، فحين بايعوه بيعة العقبة الثانية على أن ينصروه إذا قدم إليهم، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم «قال لهم أسعد بن زرارة: رويدًا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن يعضكم السيف، فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة، فخذوه وأجركم على الله. وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة، فذروه، فهو عذر عند الله - عز وجل - فقالوا: يا أسعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها. قال (جابر بن عبد الله الأنصاري): فقمنا إليه رجلًا رجلًا، فأخذ علينا ليعطينا بذلك الجنة»[1]. وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم. قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. فنزل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[2] قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم[3].

---

(1) (المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الهجرة الأولى إلى الحبشة، ذكر بيعة العقبة مفصلًا، ج3، ص531، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، واللفظ للحاكم).

(2) (سورة التوبة، الآية: 111).

(3) (تفسير ابن كثير، ج4، ص218).

أهل الإيثار والكرم

ومن أعظم صفات الأنصار وما تميزوا به من جميل الأخلاق؛ خلق الإيثار، وحب إخوانهم من المهاجرين، وصفاء النفس، ونقاء السريرة، وقد وصفهم الله تعالى في القرآن الكريم بذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] وعن أنس - رضي الله عنه - قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قومًا أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل؛ من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال النبي ﷺ: «لا؛ ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم»[2]. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا. فقال: تكفونا المئونة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا»[3]. وأخرج البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا. إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها[4].

(1) (سورة الحشر، الآية: 9).

(2) (صحيح الترمذي، رقم الحديث: 2487، وصححه الألباني).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في المعاملة، رقم الحديث: 2570).

(4) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا، رقم الحديث: 3583).

ومن صفاتهم أنهم لا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة.

قال تعالى مادحًا لهم: «ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» (يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل». وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى «ويطعمون الطعام على حبه» وقوله «وآتى المال على حبه» فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه)[1].

مؤاخاة فريدة.. وأخوّة نادرة

أنْ تسكن في بيتك فيأتيك ضيف فتكرمه ثلاثة أيام ثم يغادر، أو يزورك غريب فتؤويه ليالي ثم يرحل، أو يمر عليك مسافر فتضيفه وقتًا ثم يظعن؛ لهو أمر مقبول عادة وعرفًا، وإنه لمن مكارم الأخلاق التي تميز بها العرب. أما أن يأتيك ويهاجر إليك من لا تعرفه، ويعيش معك لوقت غير محدد، وتؤاخيه فيشاطرك مالك ومسكنك بل ووقتك ومطعمك حيًّا وميتًا، فتقابل هذا كله بسعادة وفرح ورضا وطيب نفس فهذا أمر يدعو للعجب وينبيء عن

(1) (تفسير ابن كثير، ج8، ص70).

نفاسة معدنك وأصالته، وحبك لمن هو أغلى من هذا المال وأعلى من ذاك الذهب.. وهذا ما كان من الأنصار حين استقبلوا إخوانهم من المهاجرين وآووهم حبًّا لله ورسوله، فصاروا بنعمة الله إخوانًا.

وقد (شرع رسول الله ﷺ نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد شمل ذلك خمسة وأربعين من الأنصار، وترتب على هذا النظام حقوق خاصة بين المتآخيين كالمواساة في مواجهة أعباء الحياة والتوارث بينهما دون ذوي الأرحام. وتصور بعض المرويات الصحيحة عمق التزام الأنصار بنظام المؤاخاة، ومدى حرصهم على تنفيذه، كما تصور مدى أنفة وكرم أخلاق المهاجرين، وامتناعهم عن استغلال إخوانهم. واستمر العمل بنظام المؤاخاة إلى ما بعد غزوة بدر الكبرى؛ حيث ألف المهاجرون جوَّ المدينة، وعرفوا مسالك الرزق فيها، ووثقوا علاقتهم بإخوانهم المسلمين من الأنصار وغيرهم، وأصابوا من غنائم معركة بدر الكبرى ما كفاهم. ولذلك فقد ألغي التوارث في نظام المؤاخاة، وعاد إلى وضعه القائم على أساس صلة الرحم)[1].

فكان ممن تآخوا على سبيل المثال وثبتت لنا المصادر أسماءهم: أبو بكر الصديق مع خارجة بن زهير، عمر بن الخطاب مع عتبة بن مالك، أبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ، عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع، الزبير بن العوام مع مسلمة بن سلامة، عثمان بن عفان مع أوس بن ثابت، طلحة بن

(1) (انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ. ج1 ص 267).

عبيد الله مع كعب بن مالك، سعيد بن زيد مع أُبَيّ بن كعب، مصعب بن عمير مع أبي أيوب خالد بن زيد، أبو حذيفة بن عتبة مع عباد بن بشر، عمار بن ياسر مع حذيفة بن اليمان، أبو ذر الغفاري مع المنذر بن عمرو، حاطب بن أبي بلتعة مع عويم بن ساعدة، سلمان الفارسي مع أبي الدرداء، بلال مع أبي رويحة[1].

إنها أخوّة نادرة يتقاسم الأنصاري فيها ما يملك مع أخيه المهاجر بحب وإيثار عجيب، وهو الذي لا تربطه به قرابة أو معرفة حميمة سابقة، ويقابل هذا الإيثار العجيب من الأنصار ما هو أعجب منه حيث عفة نفس وغنى وقناعة من المهاجرين، فها هو سعد بن الربيع يقول لعبد الرحمن بن عوف: «إني أكثر الأنصار مالًا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟»[2]. فيا لهم من رجال! بمثل هؤلاء وهؤلاء قامت دولة الإسلام، وبمثلهم تخطى المسلمون المهاجرون حينها أزمتهم الاقتصادية دون أن يمدوا أيديهم لأعدائهم من مشركي مكة عطفًا واستجداء. وبمثل هذه الأخلاق يحصل التعالي والانتصار على عامل من أكبر عوامل الاستعمار حين ينخر في جسد الشعوب، ألا وهو الجوع والحاجة والفقر، وبمثل المهاجرين والأنصار انتشر الإسلام فدخل الناس في دين الله أفواجًا.

(1) (دراسة في السيرة الدكتور عماد الدين خليل.. ص 127).

(2) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، رقم الحديث: 3569).

ألا ما أشد حاجتنا إلى إحياء روح هذه الأخوة الحقيقية، أخوّة الدين التي ذكرها الله تعالى وأكدها في كتابه فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، وما أشد حاجتنا إلى التخلق بأخلاق إخواننا من المهاجرين والأنصار، لا سيما في هذه الأيام التي نسمع فيها عن انتهاك الحقوق والعبث بالأرواح، فأينما يمَّمنا وجوهنا رأينا الدماء تسيل بلا رحمة، فيضرب الأخ أخاه ويؤذيه بل ويقتله دونما ذنب إلا أن يطالب بحقه لا غير.

كما أن هناك أيضًا من يأكل مال غيره ظلمًا ويغتني على حسابه، ومنهم من يقطع صلته عن أخيه الفقير، أو يعطيه ويمنّ عليه بالعطاء. وهناك من يشبع ملء بطنه وإخوانه من حوله يتضورون جوعًا فلا يهتز له طرف! وفي المقابل يوجد من يتدنى بنفسه ويذهب بعزتها وعفتها ويريق ماء وجهه فيطمع في العطاء دائمًا ويتطلع إليه ويتشوق، بل ويتسول ويمد يده لإخوانه وأصحابه رغبة في الزيادة، ولا يعمل ويكد ليعف نفسه عن ذل السؤال، ويسأل الناس عند الحاجة وغير الحاجة، دائمًا يده هي اليد السفلى فلا يشبع ولا يشكر ولا يستغني! أين هذا كله من إيثار الأنصار وعفة المهاجرين؟!

هؤلاء هم الأنصار

هؤلاء هم الأنصار، وهذه أخلاقهم، قال لهم الرسول ﷺ: «أنا محمد عبد الله ورسوله، هاجرتُ إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم،

(1) (سورة الحجرات، الآية: 10).

والممات مماتكم»[1]. وكان بقاء النبي ﷺ بينهم ومكثه معهم بالمدينة بعد فتح مكة؛ خيرَ مكافأة لهم وأعظم عطاء، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: (لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء؛ وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة؛ حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه... فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمنّ وأفضل. قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟» قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المن والفضل؟ قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فأغنيناك. أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار

(1) (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، رقم الحديث: 1780).

وأبناء أبناء الأنصار» قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا)[1].

لقد اختارهم ولم ينسَ فضلهم إذ يقول: "يا معشر الأنصار، ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون برسول الله ﷺ تحوزونه إلى بيوتكم؟". قالوا: بلى. فقال النبي ﷺ: "لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار شعبًا لأخذت شعب الأنصار"[2].

ومن مفاخرهم ومناقبهم ما أخرجه الحاكم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «افتخر الحيَّان من الأنصار الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منّا غسّيل الملائكة حنظلة الراهب، ومنا من اهتز له عرش الرحمن سعد بن معاذ، ومنّا من حمته الدبر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت، وقال الخزرج: منّا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل»[3]. فرضي الله عن أنصار رسول الله ﷺ وأرضاهم وجمعنا بهم في جنات النعيم.

---

(1) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، ما قالة بلغتني عنكم، رقم الحديث: 11322).

(2) (صحيح البخاري، كتاب المغازي، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر، رقم الحديث: 4082).

(3) (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر، كتاب المناقب، باب ما اشترك فيه جماعة من الصحابة، رواه البزار من طريق عبد الوهاب بن عطاء، وأصله في البخاري).

(7)
تحديات.. وأعطيات

نجَّى الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أثناء هجرته من المطاردين له، فلم ينلْ منهم أحدٌ الجائزةَ التي رصدها مشركو مكة لمن يأتي به وبصاحبه، فوصلا آمنَين إلى المدينة، وكانت نهاية رحلة الهجرة هي نقطة البداية لعمل طويل شاق لا يقل عما سبقه في مكة، وذلك من أجل إقامة دولة الإسلام وبناء لبناتها من مسلمي مكة والمدينة، أي من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، وقد بدأ النبي ﷺ هذا المشوار منذ أول لحظة وصل فيها إلى المدينة.

ولم تكن هجرة النبي ﷺ أيضًا هي نهاية عهده بمكة، بل كانت هي بداية الانطلاق من أجل تحرير مكة وغيرها من البلدان من الشرك بالله وعبادة الأوثان.

جاء نبي الله.. جاء نبي الله

عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان

يقولون: هذا رسول الله قد جاء»[1]. وقُدّر عدد الذين استقبلوه من المسلمين الأنصار خمسمائة حيث أحاطوا بركب النبي ﷺ وصاحبه. ومضى الموكب داخل المدينة والجموع تهتف: «جاء نبي الله.. جاء نبي الله»[2].

وروى أنس رضي الله عنه: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء..»[3]. وروى ابن أبي خيثمة عن أنس: شهدت يوم دخول النبي ﷺ المدينة فلم أر يومًا أحسن منه ولا أضوء»[4].

وكانت المدينة تسمى (يثرب) فسماها النبي ﷺ المدينة، وقد قال "أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبثَ الحديد»[5]. وقال: «من سمى المدينة:

---

(1) (صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة سبح اسم ربك الأعلى، رقم الحديث: 4657).

(2) (انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ج1. ص 262).

(3) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، مكتوب في التوراة صفة محمد وصفة عيسى، رقم الحديث: 3618، وصححه الترمذي).

(4) (رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الهجرة، رقم الحديث: 4213، وقال هذا حديث صحِيح على شرط مسلم ولم يُخَرِّجاه).

(5) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس، رقم الحديث: 1772).

يثرب، فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة»[1]. وعن جابر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى سمى المدينة طابة»[2].

وقد أحب النبي ﷺ أهل المدينة الأنصار الذين ضربوا أعظم مثال في الحب والبذل والعطاء والإيثار، ودعانا إلى حبهم، وقال: «والذي نفسي بيده، لا يحب الأنصار رجل حتى يلقى الله؛ إلا لقي الله وهو يحبه، ولا يبغض الأنصار رجل حتى يلقى الله، إلا لقي الله وهو يبغضه»[3]. وقال: «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»[4]. وقال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[5].

مع المهاجرين

لم يكن المهاجرون ليتركوا مكة لولا الإيذاء والتعذيب وعدم التمكين لهم من إقامة شعائر الدين، وقد روي عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –

(1) (مسند أحمد، أول مسند الكوفيين، من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل، رقم الحديث: 18048، وصححه السيوطي).
(2) (صحيح مسلم، كتاب الحج، إنها طيبة، رقم الحديث: 1385).
(3) (صحيح الجامع، رقم الحديث: 1979، وحسنه الألباني).
(4) (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، لا يحبهم إلا مؤمن، رقم الحديث: 111).
(5) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار، رقم الحديث: 3572، ص1379).

obeikandl.com

قال: (كان أول من أظهر إسلامه سبعة، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار وأمه سمية، وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالًا؛ فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول أحد أحد»[1].

لذا حين أذن النبي ﷺ بالهجرة سارع المسلمون مهاجرين إلى المدينة كما هاجروا من قبل إلى الحبشة، وقد ضحوا في سبيل الثبات على العقيدة بكل غال ونفيس، فلم يكن ترْك ديارهم وأموالهم بالأمر الهين، لكنهم انتصروا على شهوات النفس وزخارف الحياة وآثروا ما يبقى على ما يفنى، ومنهم من اشترى نفسه بماله كله ليسلم من أذى المشركين فيدعوه يهاجر إلى رسول الله ﷺ ونزل فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة يحث على التمسك بالدين والثبات على الحق.. قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[2]. قيل إنها نزلت في صهيب فإنه أقبل مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ نفر من قريش، فنزل عن راحلته، وانتثل ما في كنانته، وأخذ قوسه، وقال:

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، أبواب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، كان أول من أظهر إسلامه سبعة، رقم الحديث: 150، حسنه الألباني).

(2) (سورة البقرة، الآية: 207).

لقد علمتم أني من أرماكم، وايم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم. فقالوا: لا نتركك تذهب عنا غنيًّا وقد جئتنا صعلوكًا، ولكن دلنا على مالك بمكة ونخلي عنك، وعاهدوه على ذلك؛ ففعل، فلما قدم على رسول الله ﷺ نزلت الآية، فقال له رسول الله ﷺ: (ربح البيع أبا يحيى)، وتلا عليه الآية[1].

تحديات في أرض الهجرة

كما واجه المسلمون المهاجرون الكثيرَ من المصاعب الصحية الناجمة عن اختلاف المناخ، ذلك أنهم لم يكونوا قد اعتادوا على البرودة القاسية، والرطوبة العالية، وقد تفشت بينهم الحمى، وينقل البخاري مرويات عن بعض كبار الصحابة من المهاجرين الذين أصابهم المرض، وكان أبو بكر الصديق ممن أصيب بالحمى، ويذكر عنه أنه إذا أخذته الحمى كان يقول: كل امرىء مصبّح في أهله: والموت أدنى من شراك نعله. لذا؛ فقد كان النبي ﷺ يدعو ربه لهم «اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم»[2]، «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حُمَّاها فاجعلها بالجحفة»[3].

(1) (انظر تفسير القرطبي، ج3، ص21).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم الحديث: 1234).

(3) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله، رقم الحديث: 3711).

obeikandi.com

هذا بالنسبة لحال المهاجرين، أما الأنصار فلم لم تكن كفالتهم لإخوانهم المهاجرين بالأمر السهل في دنيا الواقع وعلى أرض الحقيقة كما يتخيل أو يظن البعض، بل كانت في هذه المرحلة الحرجة كفالة كاملة ماديًّا باقتسام ما يملكون معهم وتوارثهم دون أرحامهم، ونفسيًّا بالأخوّة فيما بينهم ومتطلباتها، وأمنيًّا بالدفاع عنهم وموالاتهم وإيوائهم ونصرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾[1] ومن أجل ذلك لم يكن الله تعالى ليضيع أجرهم، فكافأ كلا الفريقين، المهاجرين والأنصار، فجعلهم خير الأصحاب لنبيه وأعزهم بصحبة خير رسله، وذكرهم في كتابه، وقرن بين من هاجر ومن نصر، وحباهم بالرضا والقرب والحب والقبول. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2].

كما شهد لهم بالإيمان، ووعدهم بالغفران.. فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[3]. أي حققوا إيمانهم بالهجرة والنصرة. وحقق الله إيمانهم بالبشارة.

(1) (سورة الأنفال، الآية: 72).

(2) (سورة التوبة، الآية: 100).

(3) (سورة الأنفال، الآية: 74).

وقد رضي عنهم النبي ﷺ وبيَّن فضلهم، وقال: «دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبًا ما بلغتم أعمالهم»[1].

الهجرة.. وتحقيق السلام

وكانت هجرة النبي ﷺ سبيلًا لتحقيق السلام في مجتمع المدينة، وكان هذا السلام على صعيدين، الصعيد الأول بين المهاجرين والأنصار حيث تآخوا في الله أخوين أخوين، وعلى الصعيد الآخر كانت المؤاخاة بين الأنصار أنفسهم من قبيلتي الأوس والخزرج، وقد كانت بينهما عداوة كبيرة ضارية، وهذا ما ذكره الأنصار للنبي ﷺ في العقبة حين قالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى الله أن يجمعهم بك، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك[2]. وقد أزالت أخوة الإسلام كل ما كان بينهما من شر وبغضاء، فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا، ونزل القرآن يحث على كل ذلك ويذكر بتلك النعمة العظيمة، نعمة الأخوة والسلام، وهي من أجل النعم بعد نعمة الهداية.. قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3]، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة

(1) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبًا ما بلغتم أعمالهم، رقم الحديث: 13400، وصححه الألباني).

(2) (السيرة النبوية لابن هشام ج1).

(3) (سورة آل عمران، الآية: 103).

في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن طال بسببها قتالهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله متواصلين في ذات الله متعاونين على البر والتقوى[1].

مكافآت.. ومِنَح

وقد كرّم الله تعالى دار الهجرة كما كرّم أهلها من الأنصار والمهاجرين، فدفع عنها السوء والشر. روى البخاري بسنده إلى أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»[2].

تكفل الله بحفظها وحفظ أهلها، قال النبي ﷺ: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق»[3]. وقال: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء»[4].

---

(1) (تفسير ابن كثير، ج2، ص90).

(2) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، رقم الحديث: 1781).

(3) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، على أنقاب المدينة ملائكة، رقم الحديث: 1782).

(4) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة، رقم الحديث: 1778).

حرمها النبي ﷺ وقال: «إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لأهلها، وإني حرَّمتُ المدينة كما حرَّم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة»[1] وقال: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفَي ما بمكة من البركة»[2]. وقال: «إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها، وقال: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. لا يدعها أحد رغبة عنه إلا أبدل الله فيها من هو خير منه. ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعًا، أو شهيدًا، يوم القيامة». وفي رواية: «ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح في الماء»[3]. وقال عنها: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة، كما تأرز الحية إلى جحرها»[4]، ورغب في سكناها والموت فيها فقال: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها؛ فإني أشفع لمن يموت بها»[5].

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، رقم الحديث: 1360).

(2) (صحيح مسلم، كتاب الحج، اللهم بارك لهم في مكيالهم، رقم الحديث: 2432).

(3) (صحيح مسلم، كتاب الحج، إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة، رقم الحديث: 2426).

(4) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة، رقم الحديث: 1777)

(5) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، رقم الحديث: 3917، وصححه الألباني).

(8)
يا نبيّ الله،
هذه داري.. وهذا بابي

إذا ذكِرَتْ الهجرة ذكِرَ معها وتعلق به الوجدان، فقد كان مثالًا رائعًا حيًّا في حب الله ورسوله، وأسوة في الكرم وحسن الضيافة، والبذل والإيثار.. فهو واحد من أولئك الأنصار الذين نصروا الله ورسوله، وكان له معهم النصيب الأوفى حيث استضاف في بيته خير إنسان على وجه الأرض، رسول الله ﷺ، فشرف بيته وازدان، وخلد ذكره بين الأنام، وارتبط اسمه بالهجرة النبوية المباركة أينما ذكِرتْ، ومتى ترددت على الأسماع.

إنه الصحابي الجليل خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، من بني النجار، كنيته أبو أيوب الأنصاري وقد اشتهر بها، كان من السابقين من الأنصار إلى الإسلام؛ فهو من السبعين أصحاب بيعة العقبة الثانية، وقد كافأه الله عز وجل حيث بركت ناقة رسول الله ﷺ أمام داره، فكانت أول دار يسكنها النبي ﷺ بعد الهجرة، وقد مكث فيها سبعة أشهر.

obeikandl.com

«دعوها؛ فإنها مأمورة»

وعند وصول النبي ﷺ المدينة نزل بقباء - في أعلى المدينة - (فأقام أربعة عشر يومًا وأسس مسجد قباء، ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم، فجمع بهم بمن كان معه من المسلمين وهم مائة. ثم ركب ناقته وسار، وجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم ويأخذون بخطام الناقة، فيقول: «خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة» فبركت عند مسجده اليوم، وكان مربدًا لسهل وسهيل، غلامين من بني النجار، فنزل عنها على أبي أيوب الأنصاري، ثم بنى مسجده موضع المربد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن، ثم بنى مسكنه ومساكن أزواجه إلى جنبه، وأقربها إليه مسكن عائشة، ثم تحول بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها)[1].

فمن تكريم الله تعالى لأبي أيوب أن الناقة (لم تزل سائرة بالنبي ﷺ لا تمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه في النزول عليهم، فيقول لهم النبي ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة»، فسارت حتى وصلت موضع مسجده اليوم فبركت ولم ينزل عنها حتى نهضت، وسارت قليلًا، ثم التفتت ورجعت في موضعها الأول فبركت، فنزل عنها وذلك في بني النجار أخواله، وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل عليهم ليكرمهم بذلك، فجعلوا يكلمونه في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب إلى راحلته فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول:

(1) (انظر زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم، في ذكرى الهجرتين الأولى والثانية)

«المرء مع رحله»)[1]. وأخرج البخاري في صحيحه: أن النبي ﷺ قال: «أي بيوت أهلنا أقرب؟». فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، قال: «فانطلق فهيئ لنا مقيلًا»[2].

في بيت أبي أيوب

وقد اغترف أبو أيوب – رضي الله عنه – من بركة النبي ﷺ ما لم يتيسر لغيره، وعاش معه في بيت واحد، يخدمه ويكرمه، وتالله؛ فإن الكرامة كل الكرامة لأبي أيوب أن اصطفاه الله تعالى دون سائر قومه ليكون مضيفًا لنبيه ﷺ. ومن هنا كان أبو أيوب – رضي الله عنه – حريصًا غاية الحرص على راحته وعدم إيذائه موقرًا ومجلًا له، كان يتأذى أن ينام في غرفة تعلو غرفة النبي ﷺ. فعنه قال: لما نزل عليّ رسول الله ﷺ قلت: بأبي وأمي، إني أكره أن أكون فوقك وتكون أسفل مني. فقال رسول الله ﷺ: «أن أرفق بنا أن نكون في السفل لمن يغشانا من الناس». فلقد رأيت جرّة لنا انكسرت، فأهريق ماؤها فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء فرقًا من أن يصل إلى رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه، وكنا نصنع طعامًا فإذا رد ما بقي منه تيمّمنا مواضع أصابعه فأكلنا منه، يريد بذلك البركة،

(1) (مختصر زاد المعاد للإمام محمد بن عبد الوهاب، فصل في قدوم النبي المدينة).

(2) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، فأخذ النبي ﷺ تمرة فلاكها، رقم الحديث: 3699).

فردّ علينا عشاءه ليلة وكنا جعلنا فيه ثومًا أو بصلًا، فلم نر فيه أثر أصابعه فذكرت له الذي كنا نصنع والذي رأينا من رده الطعام ولم يأكل، فقال: «إني وجدت منه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي فلم أحب أن يوجد مني ريحه فأما أنتم فكلوه»[1]. ولا شك أن البركة قد حلت بتلك الدار وتنزلت عليها سحائب السكينة وبشائر الرحمة أن وطئت أقدامه الشريفة عتبتها فضلًا عن سكناه فيها. فيا له من فضل لا يدانيه فضل! وكان أبو أيوب وزوجه يغتنمان تلك الفرصة فيطلبان هذه البركة ويلتمسانها في تتبع أثر النبي ﷺ في فضلة طعامه.

وقد مكث النبي ﷺ سبعة أشهر في دار أبي أيوب، ولا شك أن تلك المجاورة كان لها الأثر العظيم على أبي أيوب إيمانيًّا وعلميًّا وعمليًّا، فلم يكن يسمع في تلك الدار إلا الخير، وقد شهدت إسلام الكثيرين من أهل المدينة فهي دار باركها الله عز وجل بنبيه. وقد روى أبو أيوب – رضي الله عنه – مائة وخمسة وخمسين حديثًا عن النبي ﷺ وتعلم منه ودعا بدعوته. فعن عبد الله بن سعد بن أبي وقاص، قال: قال لي أبو أيوب الأنصاري: ألا أعلمك كلمة علمنيها رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى يا عم. قال: إن رسول الله ﷺ حين نزل عليّ قال: «ألا أعلمك يا أبا أيوب كلمة من كنز الجنة؟». قلت: بلى يا رسول الله بأبي أنت وأمي. قال: «أكثر من قول لا حول ولا

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، هجرة الرسول ﷺ، بناء مسجد المدينة، ج1، ص498).

قوة إلا بالله»[1]. وأخرج ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي، قال: «جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري»[2].

غبطة.. وحياء

وحين أتفكر في مكث النبي ﷺ في دار أبي أيوب رضي الله عنه، فإنني أغبط أبا أيوب وزوجه - رضي الله عنهما - على أعظم ضيف في الوجود استضافه بيتهما الطيب، وأتمنى أن أكون مكانهما! فقد نالا شرف الخدمة.. لكني مع التفكر أسائل نفسي على استحياء، هل سأفعل مع نبي الله ﷺ ما فعل أبو أيوب؟ فتشتد ضربات قلبي رهبة ويخفق شفقة وخشية على نفسي، وأطرق برأسي حياء وخجلًا من رسول الله ﷺ.

ماذا لو كان النبي ﷺ في بيوتنا؟ إنه سؤال يحتاج منا جميعًا لإجابة عملية دقيقة حتى ننجح في اختبار الابتلاء. هل حقًّا بيوتنا الآن مجهزة لاستقبال النبي ﷺ؟ تُرَى لو تخيل كل منا أن رسول الله ﷺ سيزوره، ويحل عليه ضيفًا

(1) (المعجم الكبير للطبراني، باب الخاء، باب من اسمه خالد، رقم الحديث: 3801، رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات).

(2) (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، النوع العشرون في معرفة حفاظه ورواياته، ج1، ص249).

كريمًا في بيته الآن، كيف سيعدّ البيت لاستقباله؟ وكيف سيستقبله، هل سيكرم ضيافته، هل سيقوم بحقه وواجبه، وهل يصبر على ترك شهوات نفسه أمام حضرته، وهل سيُخفي ما خفي عن أعين الناس وقد أرخى الله علينا فيها ستره؟ ماذا سيتكلم في مجلسه، كيف سيتلقى حديثه، مذا يفعل مع أوامره وشرعه، وفي نهاية وقت الزيارة هل سيودعه على حسن العهد والوعد بالوفاء له حتى يلقاه على الحوض ويجاوره في الفردوس الأعلى برحمة الله المنان؟

لا شك أن في بيوتنا أشياء نحتاج أن نتخلص منها حتى لا يراها فيغضب منا، ولا ريب أن في قلوبنا آفات تظهر على فلتات الألسنة لا بد أن نداويها، وأن لنا عورات لا نريد أن يطلع عليها حياء واستخفاء وقد سترها الله علينا أمام عباده، فما ظننا إن كان من سيطلع عليها أو يجاورها هو رسول الله ﷺ؟

فإن كان النبي ﷺ قد مات وأن زيارته لنا كما زار أبا أيوب لن تكون، فإن الله تعالى حيّ لا يموت ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

وإن كان أبو أيوب وزوجه أكرما نبي الله ﷺ في حياته فإن بإمكاننا نحن أن نكرمه بعد أن مات، بإيماننا الكبير به وبطاعته وحبه واقتفاء أثره

(1) (سورة المجادلة، الآية: 7).

(2) (سورة الحديد،الآية: 4).

وإحياء سنته والدعوة إلى دينه والتخلق بخلقه، وتالله سيكون معنا رسول الله ﷺ بذلك كل لحظة بل كل طرفة عين، فلن ننساه أو نغفل عنه، وستراه قلوبنا وإن غاب عن أعيننا.

حب أبي أيوب للنبي ﷺ

كان أبو أيوب يحب النبي ﷺ حبًّا شديدًا لا مجال للادّعاء فيه، بل ظهر هذا الحب مترجمًا في أعماله وأحواله، فقد جعل من نفسه حارسًا له ليلة بنائه بزوجه صفية رضي الله عنها، خوفًا عليه منها.. قال ابن إسحاق: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر أو ببعض الطريق، وكانت التي جملتها لرسول الله ﷺ ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك. فبات بها رسول الله ﷺ في قبة له. وبات أبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النجار متوشحًا سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ فلما رأى مكانه قال: «ما لك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلتَ أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»[1]. وقد دعا له النبي ﷺ مرة أخرى، وكان ذلك بعد فتح مكة، وكان رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة فسقطت على لحيته ريشة فابتدر إليه أبو أيوب، فأخذها

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، ذكر المسير إلى خيبر، ج2، ص340).

فقال له النبي ﷺ: «نزع الله عنك ما تكره»[1]، وعن سعيد بن المسيب أن أبا أيوب أخذ من لحية النبي ﷺ شيئًا، فقال النبي ﷺ: «لا يصيبك السوء أبا أيوب»[2].

أبو أيوب مجاهدًا وشهيدًا

شهد أبو أيوب - رضي الله عنه - بدرًا والمشاهد كلها، وكان شجاعًا صابرًا تقيًّا محبًّا للغزو والجهاد، وقد تحرك مع الجيش المتوجه للقسطنطينية؛ حيث استشهد هناك في السنة الثانية والخمسين للهجرة ودفن هناك. فعن أبي عمران التجيبي قال: «غزونا القسطنطينية، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فصففنا صفين، ما رأيت صفين قط أطول منهما، ومات أبو أيوب الأنصاري في هذه الغزاة، وكان أوصى أن يدفن في أصل سور القسطنطينية، وأن يقضى دين عليه، ففعل»[3].

وأخرج الإمام أحمد عن أبي ظبيان قال: (غزا أبو أيوب - رضي الله عنه - مع يزيد بن معاوية، قال: فقال: إذا أنا مت فأدخلوني في أرض العدو، فادفنوني تحت أقدامكم حيث تلقون العدو. قال: ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»).

(1) (المعجم الكبير للطبراني، بَابُ الْخَاءِ، بَابُ مَنِ اسْمُهُ خَالِدٌ، خَالِدُ بْنُ زَيْدٍ، رقم الحديث: 3941. قال الشوكاني: إسناده رجاله ثقات).

(2) (شعب الإيمان للبيهقي، الأربعون من شُعَب الإيمان..، فصل في الأخذ من اللحية والشارب، رقم الحديث: 5951).

(3) (المستدرك على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ذكر مناقب أبي أيوب).

(9)
شقيقة الرجل ودورها في الهجرة

كانت شقيقة الرجل في الهجرة، بل فاقت كثيرًا من الرجال، وضربت لنا القدوة الحسنة في قدرتها على تخطي الصعاب والخروج من الأزمات، ولو أدى ذلك إلى الغمار بنفسها وسلامتها، ولو أدى إلى هجر الوطن والبعد عن الأهل والصديقات.

لم تكن هي تلك المرأة التي لا همّ لها ولا مأرب، ولا هدف لها ولا غاية في هذه الحياة، ولم تكن تلك المرأة التي تشغلها سفاسف الأمور ودنيا اللهو والشهوات عن التضحية والجود بما تملك في سبيل الله، فكان أن شاركت في الهجرة المباركة، وكان لها منها نصيب أوفى في بنيان هذه الأمة؛ لتضرب أعظم مثال في الشجاعة والفداء حبًّا لله ورسوله، ولتكون قدوة للنساء المسلمات على مر الأيام.

وحين أتحدث عن شقيقة الرجل لا يسعني إلا أن أبدأ بدورها في تثبيت أركان الإسلام منذ الوهلة الأولى لبزوغ شمسه وتنزّل الوحي على نبي الله ﷺ، ثم أتبع ذلك بذكر نماذج لا زالت تعيش في قلوبنا حيّة رغم مرور الأزمان، حيث مشاركتها الفعالة في هجرة النبي ﷺ القلبية وهجرته البدنية، أو هجرتها هي في سبيل الله.

أولى المهاجرات

لقد كانت أولى المهاجرات إلى الله عز وجل السيدة خديجة رضي الله عنها، لم تكن هجرتها هي الهجرة المتعارف عليها، بل هجرت ما كان عليه القوم آنذاك في مكة من عبادة الأوثان، ولم تكتف بذلك، بل يسرت لزوجها ﷺ هجرته القلبية إلى الله عز وجل في غار حراء حيث الخلوة والمناجاة، ومن ثَم تنزل الوحي عليه، فكانت أول المؤمنين به، وحفظ لها التاريخ قولتها المشهورة له: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1]. فما أعظمها من مهاجرة!

كما برز على ساحة الهجرة شخصيات نسائية رائعة أعلنت عن مبدأ المشاركة بين الرجل والمرأة في متطلبات الإيمان بالله، وفي بناء الأمة وصناعة الرجال، وردت على خصوم الإسلام الذين يزعمون أن المرأة المسلمة مظلومة دومًا مهضومة الحقوق أبدًا، مسلوبة الإرادة، مهيضة الجناح، وللأسف فقد انجرف نحو هذا التيار بعض بناتنا ونسائنا ممن يتكلمن بألسنتنا، وقد انتهجن نهجه فظنّ أن حجاب المرأة قيد لها، وأن إنفاق الرجل عليها وقوامته لها إهانة وتسلط، وزعمن أن طاعة المرأة

(1) (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، رقم الحديث: 4).

لزوجها عبودية وضعف، وأن رعاية وتربية أولادها سجن لها وحبس!

أما المرأة المسلمة في تاريخ الإسلام فقد شاركت في صنع الأمة، دافعت أولًا عن دينها ووقفت في وجه الطغاة لتثبت على عقيدتها التي اختارتها، فكانت رجلًا! يصدق فيها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1]. فكانت سمية ممن قضى نحبه شهيدة في سبيل الله عز وجل قبل أن يكون الرجال! شأنها في ذلك شأن أنس بن النضر - رضي الله عنه - الذي نزلت فيه وفي أمثاله هذه الآية الكريمة.

ومن النساء مَن رفضت القهر والظلم الواقع المتفشي في ذلك الوقت، وخشيت أن تفتن في دينها ويجرفها تيار الوثنية الذي تعج به مكة آنذاك، فصار بها الحال أن هاجرت مرتين وكتبت من المهاجرات، كما فعلت الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس رضي الله عنها، فقد خرجت مع زوجها جعفر بن أبي طالب مهاجرة إلى الله عز وجل، هجرة أولى إلى الحبشة، ثم هجرة ثانية إلى المدينة حيث النبي ﷺ، فهي صاحبة الهجرتين ومصلية القبلتين، وقد جاءت النبي ﷺ وقالت له: يا رسول الله، إن رجالًا يفخرون علينا ويزعمون أنا لسنا من المهاجرين الأولين، فقال ﷺ:

(1) (سورة الأحزاب، الآية: 27).

«بل لكم هجرتان، هاجرتم إلى الحبشة، ثم هاجرتم بعد ذلك»[1]، «إن للناس هجرة واحدة، ولكم هجرتين»[2].

ومن النساء أيضًا من سبقت جميع النساء في هجرتها من مكة إلى المدينة، فكانت أول المهاجرات إليها، كما سبقت قبل ذلك وكانت من المهاجرات من مكة إلى الحبشة، وهي أم المؤمنين أم سلمة هند بنت حذيفة بن المغيرة رضي الله عنها، ولهجرتها من مكة إلى المدينة قصة مشهورة؛ حيث حبسها أهلها عن الخروج، وفرق بينها وبين ولدها وبين زوجها، فصبرت وثبتت حتى كتب الله لها الهجرة.

بطلة وفدائية في الهجرة النبوية

أما عن هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة فلا تذكر إلا ويذكر معها الفدائية الكبيرة والمؤمنة الصادقة والمرأة المجاهدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، فقد كان لها دور خلده الله لها وأحسن به ذكرها بين الأنام، وتالله فإن هذا بعض جزاء الإخلاص والعمل الصالح، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[3]. ولا يسعني إلا أن أقدم لبناتنا ونسائنا هذا المثال الرائع لهذه المرأة المباركة التي ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة،

(1) (فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، كتاب المغازي)
(2) (صحيح ابن حبان، رقم الحديث: 7350).
(3) (سورة الشورى، الآية: 36).

وأسلمت مع السابقين الأولين فكان ترتيبها الثامنة عشرة، وهي أخت أم المؤمنين عائشة من الأب، أما زوجها فهو الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة، من بيت شرف وكرم وتقوى، فأبوها وأمها وابنها وأختها من الصحابة رضي الله عنهم جميعًا[1].

أما عن قصتها في هجرة النبي ﷺ فتحكيها هي، فتقول: صنعت سفرة رسول الله ﷺ، في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، قالت: فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: والله ما أجد شيئًا أربط به إلا نطاقي، قال: فشقيه باثنين، فاربطي بواحد السقاء، وبالآخر السفرة، ففعلت، فلذلك سميت ذات النطاقين[2]. و(النطاق) ما تشد به المرأة وسطها.

كانت - رضي الله عنها - شجاعة لا تأبه بالمتاعب والمصاعب، كان كل همها هو نجاة النبي ﷺ وأبيها أبي بكر رضي الله عنه، فكانت تستخفي عن الأنظار ليلًا فتأتيهما بالطعام متخفية إذا جن الليل واشتد الظلام وهما في الغار، وتحدثهما عن أخبار المشركين.

---

(1) (انظرعظماء الإسلام لمحمد سعيد مرسي، ومؤمنات لهم عند الله شأن، للدكتور محمد بكر إسماعيل).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو، رقم الحديث: 2817).

وقد حفظت أسماءُ سرَّ رسول الله ﷺ في هجرته ولم تفشه أو تدل على وجهته، قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير عن عائشة، أنها قالت: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر، أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشيًّا، حتى إذا كان الذي أذن الله فيه رسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول الله أحد إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: أخرج عني مَن عندك! قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي. وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: إن الله أذن لي بالخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة. قال ابن إسحاق: ولم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج - يقصد نوى الخروج - إلا عليّ وأبو بكر وآله[1].

ومع أنها كانت تتردد عليهما في غار ثور، إلا أنها كانت نعم الحافظة للسر الأمينة عليه، المقدرة لخطورة الموقف، وقد سألها أبو جهل عن أبيها أبي بكر حتى يعرف مكان النبي ﷺ فلم تخبره، فلطمها على وجهها فطرح منها قرطها

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، هجرة الرسول ﷺ، حديث هجرته ﷺ إلى المدينة، ج1، ص484).

لكنها لم تضعف، فقد أثبتت بهذا الموقف أن المرأة المسلمة لا تقل إيمانًا عن الرجل، وأنها أهل لحمل المسئولية وقادرة على حفظ السر والكلمة إن وكِّل لها ذلك، جديرة بتخطي الصعاب لتحقيق الأهداف العالية خاصة إذا كان الهدف يتعلق بمصير الإسلام والمسلمين، وأن المرأة ليست كما يشاع ويتردد من أنها - بصفة عامة - لا تؤتمن على سرّ، فهذا تعميم ليس في محله.

المهاجرة إلى الله

بعد أن نجا النبي ﷺ واستقر في المدينة، هاجرت أسماء بعد ذلك إليها، كانت تحمل بين أحشائها طفلها، لم يمنعها هذا الحمل من الهجرة، بل سارعت للحاق بركب المهاجرين لتكون معهم ومنهم. قال ابن كثير في البداية والنهاية: (ثبت من غير وجه عن هشام عن أبيه أنها خرجت بعبد الله من مكة مهاجرة، وهي حبلى به، فولدته بقباء أول مقدمهم المدينة، فأتت به رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبد الله ودعا له، وفرح المسلمون به؛ لأنه كانت اليهود قد زعموا أنهم قد سحروا المهاجرين فلا يولد لهم ولد في المدينة، فلما ولد الزبير كبر المسلمون)[1].

وفي رواية مسلم: «خرجت أسماء بنت أبي بكر، حين هاجرت، وهي حبلى بعبد الله بن الزبير فقدمت قباء فنفست بعبد الله بقباء. ثم خرجت

(1) (البداية والنهاية لابن كثير، ثم دخلت سنة ثلاث وسبعون، ترجمة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، ج12، ص187).

حين نفست إلى رسول الله ﷺ ليحنكه، فأخذه رسول الله ﷺ منها فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة. قال: قالت عائشة: فمكثنا ساعة نلتمسها قبل أن نجدها. فمضغها ثم بصقها في فيه. فإن أول شيء دخل بطنه لريق رسول الله ﷺ. ثم قالت أسماء: ثم مسحه وصلى عليه وسماه عبد الله. ثم جاء، وهو ابن سبع سنين أو ثمان، ليبايع رسول الله ﷺ. وأمره بذلك الزبير، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلًا إليه. ثم بايعه»[1].

هذه هي أسماء

هذه هي أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما، لقد تُوِّجتْ بطلة في رحلة الهجرة النبوية، ونالت وسام الشجاعة من الدرجة الأولى، وقد شهدت فيما بعد موقعة اليرموك مع زوجها الزبير، وأبلت فيها بلاء حسنًا.

روت عن النبي ﷺ ستة وخمسين حديثًا منها اثنان وعشرون في الصحيحين، وكانت شاعرة ذات منطق وبيان.

وكما جادت بنفسها في سبيل الله؛ كانت تجود بما عندها من قليل أو كثير، مسارعة في الخيرات، وخوفًا من أن يعاجلها الموت فتموت وفي بيتها ما تتصدق به. يروي ابن سعد في الطبقات الكبرى أن أسماء كانت تمرض المرضة، فتعتق كل مملوك لها؛ خوفًا من أن تموت وتترك خلفها مالًا لم تتصدق به.

(1) (صحيح مسلم، كتاب الآداب، ولد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ، رقم الحديث: 2146).

توفيت – رضي الله عنها – ولها من العمر مائة سنة، ولم يسقط لها سن، ولم ينكر لها عقل، وماتت ضريرة، وكانت آخر من مات من المهاجرات، فرضي الله عنها وجمعنا معها برحمته في جنات النعيم.

obeikandl.com

(10)
الأماناتُ أمـانة

أنْ يودِعَه جاره أو أحد معارفه وديعة ليحفظها له، أو يعهدَ إليه بشيء ذي بال وقيمة يخشى عليه اللصوص ويخاف عليه الضياع؛ لهو أمر لا غرابة فيه، ولا ينكره أحد.. أمّا أن يترك وديعته عنده يستأمنه عليها وهو يعاديه ويؤلب الناس على عداوته ويصدهم عن تصديقه ويتهمه بالكذب والافتراء على الله عز وجل؛ لهو أمر يحيّر العقل ويدعو إلى العجب! إذ كيف يأتمنه على ماله وفي نفس الوقت يتهمه بالكذب وعدم الأمانة في تبليغ رسالة الله! وكيف يأتمنه على متاع زائل غَرور، وفي الوقت ذاته يتهمه في أمانة البلاغ.. أمَا وإن هذا كله قد حدث من مشركي مكة تجاه نبي الله ﷺ مع مكرهم به وتخطيطهم لقتله فإنه ولا شك ينبىء عن عظيم أمانته وصدقه وورعه، فمن يَصدق مع الناس وهم لا يملكون له نفعًا ولا ضرًّا؛ سيكون صادقًا أمينًا مع الله العليم السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، وبيده النفع والضر سبحانه.

خلق الأمانة تجلى في رحلة الهجرة

لقد كان في الهجرة النبوية درس عظيم ودعوة صريحة لكل منّا، درس يدعو المسلم ويعلمه أن يكون أمينًا ورعًا مع الناس جميعًا ولو كانوا أعداءه أو مخالفيه، اقتداء بالنبي ﷺ الذي ضرب لنا أعظم الأمثلة في هذا الخلق الرائع، ولا خير فينا إن لم نعقل هذا الدرس ونعيه ونطبقه على أرض الواقع، كما لا خير فينا إن تخلينا عن هذا الخلق العظيم الذي نحتاج إليه في أمور حياتنا كلها، حيث التخلق به مع الله عز وجل، ومع نبيه ﷺ، ومع أنفسنا ومع الناس جميعًا.

وقد علمنا النبي ﷺ بطريقة عملية فريدة كيف نرد الحقوق إلى أهلها ولو كانوا لنا ظالمين. فحينما أخرجه قومه من مكة وخرج منها مهاجرًا إلى المدينة كان عنده ودائع كثيرة لأهل مكة، لكنه لم يفعل كما يفعل بعض الناس فينتقم ويأكل أموالهم ويثأر لنفسه، وقد خرج من بينهم مطاردًا مهدر الدم عندهم، وهم يريدون قتله أو الإمساك به، لكنه وهو الأمين الذي لم يكذب ولم يخن في حياته قط لم يترك مكة إلا بعد أن ترك ابن عمه عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – فيها وعهد إليه أن يرد الودائع إلى أصحابها.

إنه موقف عظيم يدعو للتفكر والتأمل، ويا لها من أمانة! يؤذَى منهم وأيّ أذى، يطلبه قومه، يطاردونه، يريدون قتله، ومن قبل ذلك كذبوه وناصبوه العداء بكل أشكاله، ومع هذا لم يأكل أموالهم ولم يستحلها لنفسه

تعويضًا عما لحقه من ضرر، وكان بإمكانه أن يفعل كما فعل مشركو مكة حين نهبوا أموال وبيوت المؤمنين المهاجرين بعد هجرتهم منها.

قال ابن إسحاق: (أما عليّ فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته)[1].

النبي ﷺ.. والدعوة إلى الأمانة

كان النبي ﷺ يلقب في الناس بالأمين، وشهد له أصدقاؤه وأعداؤه بذلك، فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: أخبرني أبو سفيان: أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت: أنه أمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة نبي[2].

وقال النجاشي للمهاجرين: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟... فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن

(1) (فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي).

(2) (فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد).

نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام»[1].

مفهوم الأمانة

والأمانة ليست محصورة في الودائع كما يفهم البعض، وإنما هي أوسع من ذلك، إذ هي مطلوبة في كل أمر من أمور حياتنا وفي كل طاعة وعمل؛ لذا فقد ذكرت في القرآن الكريم كصفة من صفات عباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾[2] قال القرطبي في تفسيره: الأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولًا وفعلًا، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك؛ وغاية ذلك حفظه والقيام به. والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد[3].

وقد أمرنا الله جميعًا بأداء الأمانات.. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[4].

(1) (مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، بعث الله إلينا رسولًا منّا، رقم الحديث: 21992).
(2) (سورة المؤمنون، الآية: 8).
(3) (تفسير القرطبي، ج12، ص100).
(4) (سورة النساء، الآية: 58).

والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل في الحكومات. وهذا اختيار الطبري، والمعنى كما يقول في تفسيره: إن الله يأمركم يا معشر ولاة أمور المسلمين أن تؤدوا ما ائتمنتكم عليه رعيتكم من فيئهم وحقوقهم وأموالهم وصدقاتهم إليهم على ما أمركم الله، بأداء كل شيء من ذلك إلى من هو له بعد أن تصير في أيديكم، لا تظلموها أهلها ولا تستأثروا بشيء منها ولا تضعوا شيئًا منها في غير موضعه، ولا تأخذوها إلا ممن أذن الله لكم بأخذها منه قبل أن تصير في أيديكم؛ ويأمركم إذا حكمتم بين رعيتكم أن تحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، وذلك حكم الله الذي أنزله في كتابه وبينه على لسان رسوله، لا تعدوا ذلك فتجوروا عليهم. قال القرطبي: وتتناول كذلك مَن دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه؛ والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى، وروي هذا المعنى مرفوعًا من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها – أو قال – كل شيء إلا الأمانة، والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع» (ذكره أبو نعيم الحافظ في الحلية). وممن قال إن الآية عامة في الجميع البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب قالوا:

الأمانة في كل شيء في الوضوء والصلاة والزكاة والجنابة والصوم والكيل والوزن والودائع، وقال ابن عباس: لم يرخص الله لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة. وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها: الأبرار منهم والفجار[1].

الإنسان.. وحمل الأمانة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[2]. عن ابن عباس: الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله تعالى: «وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا» أي غرًّا بأمر الله.. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها. وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود. وقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروي عنه أنها في كل الفرائض، وأشدها أمانة المال. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف

(1) (انظر تفسير الطبري، ج8، ص494، وتفسير القرطبي، ج5، ص221).
(2) (سورة الأحزاب، الآية: 72).

وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان. وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السماوات، فقالت: يا رب حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة. قال: وعرضها على الأرض، فقالت: يا رب غرست في الأشجار وأجريت في الأنهار وسكان الأرض وما ذكر وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1] في عاقبة أمره. وقيل: إن الله تعالى عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين، ويجعل لهن ثوابًا وعقابًا ويستأمنهن على الدين، فقلن لا نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثوابًا ولا عقابًا، قال: وعرضها الله تبارك وتعالى على آدم، فقال بين أذني وعاتقي. قال ابن زيد فقال الله تعالى له: أما إذا تحملت هذا فسأعينك، أجعل لبصرك حجابًا فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه، وأجعل للسانك بابًا وغلقًا فإذا خشيت فأغلق، وأجعل لفرجك لباسًا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك[2].

(1) (سورة الأحزاب: الآية 72).

(2) (انظر تفسير ابن كثير ج6، ص488).

كن أمينًا.. وإياك والخيانة

دعا النبي ﷺ إلى التخلق بخلق الأمانة بصفة عامة، كما حث عليه ودعا إليه في حياتنا اليومية ومعاملاتنا فيما بيننا، من ذلك قوله: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[1]، وقال: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه ثمَّ ينشر سرها»[2].

وقال: «الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ وربما قال يعطي ما أمر به كاملًا موفرًا طيبًا به نفسه فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين»[3] أي هو ورب الصدقة الذي أخرجها في الأجر سواء. وقال: «من غسَّل ميتًا فكتم عليه غفر اللهُ له أربعين مرةً...»[4]، وقال: «من غسل ميتًا فأدى فيه الأمانة

---

(1) (سنن الترمذي، كتاب البيوع عن رسول الله ﷺ، يا معشر التجار...، رقم الحديث: 1209، وذكره الألباني في صحيح الترغيب وقال صحيح لغيره)

(2) (صحيح مسلم، كتاب النكاح، إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، رقم الحديث: 1437).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الزكاة، إذا تصدقت المرأة من طعام زوجها...، رقم الحديث: 1371).

(4) (الألباني، صحيح الترغيب، رقم الحديث:3492).

ولم يفش عليه ما يكون منه عند ذلك خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[1] فتخلق أيها المسلم بخلق نبيك ﷺ، واقتدِ بصحبه الكرام، وقد قال لنا: «إن لكل أمة أمينًا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[2]. فخصه بأمانة هذه الأمة؛ لأن عنده من الزيادة فيها ما ليس لغيره، كما خص الحياء بعثمان رضي الله تعالى عنه، والقضاء بعلي رضي الله عنه[3].

وكن أمينًا مع الله بأداء ما افترض عليك بأمانة وإتقان.

كن أمينًا مع النبي ﷺ بطاعته والعمل بسنته.

كن أمينًا مع نفسك، واعرف لها حقها من الإصلاح والتقوى والمحاسبة والتقويم، وأنقذها من نار جهنم.

كن أمينًا مع الناس؛ احفظ أموالهم ولا تأكلها بالباطل ولو خالفوك، ولو كانوا غير مسلمين، لا تحل لنفسك منها ما ليس لك، رد الودائع لأصحابها، ولا تخن جليسك ولا تفش سره؛ فقد قال النبي ﷺ: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس، مجلس يُسفك فيه دم حرام، ومجلس يُستحل فيه فرج حرام،

(1) (مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، من غسّل ميتًا فأدى فيه الأمانة، رقم الحديث: 24360. ضعفه الألباني).

(2) (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه، رقم الحديث: 2419).

(3) (فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي)

obeikandl.com

ومجلس يُستحل فيه مال من غير حق»[1]، واصدق عند النصيحة وأخلص المشورة؛ فقد قال النبي ﷺ: «إن المستشار مؤتمن»[2].

كن أمينًا وإياك والخيانة؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[3]. وادع الله تعالى أن يجنبك الخيانة كما كان يدعو البي ﷺ: «وأعوذ بك من الخيانة؛ فإنها بئست البطانة»[4]. واعلم أن الأمانة ثقيلة وكبيرة ومتعددة وكثيرة، فعلمك أمانة، وعملك أمانة، والدعوة إلى الله أمانة، وعباداتك أمانة، وجوارحك أمانة، جسمك وصحتك أمانة، عقلك وقلبك أمانة، وقتك أمانة، وظيفتك أمانة، حقوق الزوجين أمانة، حقوق الناس أمانة، الأخوّة أمانة، المال أمانة، الأعراض أمانة، الكلمة أمانة، المسئولية أمانة، تربية الولد أمانة، اليتيم والأرملة أمانة، المسكين والضعيف أمانة، بلدك أمانة، صوتك أمانة، شهادتك أمانة، ومجمل ذلك أن عمرك كله أمانة فانظر كيف تحفظه، وبماذا تعمره.

---

(1) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، المجالس بالأمانة، رقم الحديث: 14283. ذكره الألباني في السلسلة الضعيفة وضعَّفه)

(2) (سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، رقم الحديث: 2369، وصححه الألباني).

(3) (سورة الأنفال، الآية: 27).

(4) (صحيح ابن ماجه، رقم الحديث: 2723، وحسنه الألباني).

(11)
أحـبّ البقاع إلى الله

إنه مجتمع طاهر ينبض بالإيمان، وينضح بالأخوّة، ويشع بنور اليقين، مجتمع لا يجتمع عادة فيه إلا الأطهار الأبرار الذين هداهم الله فأحبهم وأحبوه، مجتمع كله أمن وسلام فلا مكان فيه للعداوة والبغضاء التي تعشش في النفوس المريضة؛ لتطمس ما بقي فيها من نور الفطرة.

ومنذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها أقدام النبي ﷺ الطاهرة أرض المدينة بدأ بإيجاد هذه البقعة الطيبة التي تجتمع فيها الأبدان وتأتلف فيها الأرواح، ويُذكر فيها اسم الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، بالعشي والإبكار.

وحين تتراصّ الصفوف فيه في أوقات معلومات متى ينادي المنادي للصلاة، وتلتصق الأقدام بالأقدام، وتلتحم الأكتاف بالأكتاف في مظهر تنصهر فيه فوارق الجنس واللون والطبقة والنسب والحسب والجاه، فالأمير والوزير والغني والفقير على أرضه أمام الله سواء، لا فضل لأحد منهم على الآخر إلا بما في قلبه من إيمان يظهر في تحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله.

obeikandl.com

إن هذه البقعة المباركة التي أضافها الله تعالى إلى نفسه إضافة تكريم وتشريف هي أول ما حرص النبي ﷺ على تأسيسها وبنائها؛ لتكون هي المسجد محل العبادة والمدرسة والجامعة لكل المسلمين، وإنها لأحب وأحسن البقاع إلى الله تعالى كما أخبرنا النبي ﷺ حين قال: «أحب البقاع إلى الله المساجد»[1]. وكما جاء عن جبير بن مطعم أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ البلدان أحبُّ إلى الله، وأيُّ البلدان أبغضُ إلى اللهِ؟ قال: لا أدري، حتى أسأل جبريل، فأتاه جبريل، فأخبره: أن أحسن البقاعِ إلى اللهِ المساجد، وأبغض البقاعِ إلى اللهِ الأسواق»[2].

أول مسجد أسس على التقوى

وكان النبي ﷺ في مكة مع أصحابه في حال من الاستضعاف لا تسمح لهم ببناء مسجد عام يضمهم جميعًا للصلاة فيه، فقد كان المسلمون يجتمعون سرًّا، وكانوا يصلون في الخفاء، وربما أعلن بعضهم صلاته فناله من الأذى الكثير. فكانت الهجرة تحولًا كبيرًا لهم من الاستضعاف بمكة إلى التمكين بالمدينة؛ حيث كان أول ما فعل النبي ﷺ فيها أن بدأ ببناء مجتمع المسلمين وتأسيسه منذ اللحظة الأولى دونما تأخر، وكانت أولى لبنات البناء هي إيجاد المكان المناسب الذي يتصل فيه العبد بخالقه، ويناجيه ويدعوه

(1) (أخرجه أحمد والبزار وصححه الحاكم وابن تيمية).

(2) (الألباني، صحيح الترغيب، رقم الحديث: 325، وقال حسن صحيح).

ويطلب منه المدد والثبات والقوة، ويجتمع الأخ فيه بإخوانه يتعاونون معًا على البر والتقوى، وليس ذلك إلا المسجدُ رمزُ التوحيد ومنبعُ العلم ومحلُّ التزكية وساحةُ التربية؛ حيث تعنو الوجوه وتسجد الجباه وتخضع القلوب لله وحده لا شريك له، بعيدًا عن فتنة الإيذاء والصد عن السبيل؛ لذا بنى النبي ﷺ مسجد قباء، وصلى فيه أول جمعة بالمسلمين، ثم بنى مسجده بالمدينة، وقيل إنه أول مسجد أسس على التقوى.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: تمارى رجلان في المسجد الَّذي أُسِّس على التقوى من أول يوم! فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا»[1].

قال الشيخ الغزالي رحمه الله: (والمروي أن الرسول ﷺ بنى مسجده الجامع حيث بركت ناقته، في مربد لغلامين يكفلهما أسعد بن زرارة، وكان الغلامان يريدان النزول عنه لله، فأبى رسول الله ﷺ إلا ابتياعه بثمنه... واشترك الرسول ﷺ وأصحابه في حمل اللبنات والأحجار على كواهلهم... وتم المسجد في حدود البساطة، فراشه الرمال والحصباء وسقفه الجريد، وأعمدته الجذوع، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه.. هذا البناء المتواضع الساذج هو الذي ربَّى ملائكة البشر، ومؤدبي الجبابرة

(1) (صحيح النسائي، رقم الحديث: 696، وصححه الألباني).

وملوك الدار الآخرة، في هذا المسجد أذن الرحمن للنبي يؤم بالقرآن خيرَ من آمن به، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل. إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي، تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي فهو ساحة للعبادة، ومدرسة للعلم، وندوة للأدب، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام)[1].

بني المسجد في المدينة، (وبهذا تجمعت الأندية، والتقت الأحياء، واقتربت القبائل، وتحابت البطون، وانقلبت التفرقة إلى وحدة، وانتقلت التجزئة إلى انسجام، ولم تعد في المدينة جماعات، بل جماعة واحدة، ولم تعد زعامات، بل قائد واحد، هو رسول الله ﷺ، يتلقى من ربه الأوامر والنواهي، ويعلّم أمته)[2].

فصار المسلمون جسدًا واحدًا لا يتجزأ، وأسرة كبيرة يضمها بيت واحد، وقلبًا كبيرًا يجتمع على حب الله ورسوله.

(ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات الخمس فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليمَ الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات،

(1) (فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي).

(2) (انظر التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ج2).

obeikandl.com

وموضعًا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية. وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون)[1].

المسجد والتربية الإيمانية

لا أحد ينكر دور المسجد في تربية المسلم التربية الإيمانية العالية على أسس عقدية وأخلاقية راسخة منذ نعومة أظفاره، وإن اهتمام النبي ﷺ ببناء المسجد فيه دلالة واضحة على أهميته ودوره الإيجابي في بناء الأمة، وكذلك يدل على أهمية فريضة الصلاة وفضل المحافظة عليها، وفضيلة التعلق بالمساجد، وقد شهد الله تعالى لعمارها بالإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[2]. وقال ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا عليه بالإيمان»[3]، قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[4]. وقال بعض السلف: إذا رأيتم الرجل يعمر المسجد فحسنوا به الظن[5].

(1) (الرحيق المختوم، صفي الدين المباركفوري)

(2) (سورة التوبة، الآية: 18).

(3) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 1721)

(4) (سورة التوبة، التوبة: 18).

(5) (تفسير القرطبي، ج8، ص27).

كما أن المسجد إذا قام بدوره حق القيام فإنه سيخرج لنا بإذن الله أحسنَ اللبنات المؤمنة التي تتربى في جنباته تنهل من دروس العلم، وتلازم حلق الذكر وتلتف حول مائدة القرآن الكريم، ينتهجون المنهج الوسط بلا غلو ولا تفريط على أيدي ورثة الأنبياء العلماء الربانيين الأتقياء الأنقياء، والنتيجة ستكون رائعة. وقد قال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[1]. فما هذه الأصناف السبعة من الناس إلا نتاج التربية الخالصة في بيوت الله المساجد.

إذا كنت من رواد المساجد؛ فأبشِرْ

لقد كثرت المساجد من حولنا وأخذت زخرفها وازَّيَنتْ وصار لكل حيّ مسجده، بل بُثت هنا وهناك، في أماكن العمل وقاعات الدراسة وعلى قارعة الطريق، لكن الفتور والتكاسل آفة تصيب بعضنا حين يهجر بيت الله ويصلي في بيته خاصة عند صلاة الفجر والعشاء؛ فيفوته الخير الكثير، وقد قال النبي ﷺ: "صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته،

(1) (صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم الحديث: 1357).

وفي سوقه، خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى، لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة»[1]. وقال: «أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة، حتى يصليها مع الإمام، أعظم أجرًا من الذي يصلي، ثم ينام»[2]. وقال: «من غدا إلى المسجد وراح، أعد الله له نزلاً من الجنة، كلما غدا أو راح»[3]. فوجود المساجد وكثرتها نعمة لا بد لها من شكر، وشكرها يكون في عمارتها.

وفي المقابل، فإن هناك من البلدان الفقيرة في العالم من لا يجدون لهم مسجدًا يجتمعون فيه لذكر الله، إلا أن يصلُّوا في الخلاء والعراء، سقفهم فيه السماء وأرضهم فرشها التراب والحصباء، لا يقيهم من حر الشمس ولا يدفع عنهم مطر الشتاء، يمدون أيديهم لنا عطفًا واستجداء لإيجاد المسجد

(1) (صحيح البخاري، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ، رقم الحديث: 620).

(2) (صحيح البخاري، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، والله ما أعرف من أمة محمد ﷺ شيئًا إلا أنهم يصلون جميعًا، رقم الحديث: 623).

(3) (صحيح البخاري، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب فضل من غدا إلى المسجد..، رقم الحديث: 631).

لهم، وهذه فرصة للقادرين على الإنفاق في وجوه البر والخير وهو من أعظم الصدقات، وقد قال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجدًا لله، بنى الله له في الجنة مثله». وفي رواية: بنى الله له بيتًا في الجنة»[1]. وفي معظم البلدان الأوروبية لا يجد المسلمون مسجدًا لهم، وإن وجد فهو لا يسعهم، فجهودهم الذاتية لا تكفي لشراء قطعة أرض له فضلًا عن تكاليف بنائه، وهنا يجب على المؤسسات الخيرية والحكومات الإسلامية أن تساعدهم وإن كانت بعضها تقوم فعلًا بهذا جزاهم الله خيرًا إلا أن الحاجة لا زالت كبيرة للحفاظ على دين هؤلاء، فهو ليس مجرد بناء مسجد، بل بناء أرواح كادت أن تموت وسط ركام الماديات، وتزكية عقول بالإيمان كادت أن تضل في غربة الطريق، وأعرف مساجد تضيق بروادها ولا مكان خارجها للصلاة فيه، وإن وجد فلا يستطيعون من شدة البرد والمطر وتزيد الحاجة في شهر رمضان.

ألا فلننفق على هذه البقاع التي يحبها الله، وهو لن يضيع أجر المنفقين، ولنتخير المكان الأشد حاجة لوجود مسجد فيه حين ننوي البناء، وكلما كانت الحاجة إلى المسجد أكبر كان الأجر أعظم. وقد جاء عن النبي ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علمه ونشره وولدًا صالحًا تركه ومصحفًا ورَّثه أو مسجدًا بناه أو بيتًا لابن السبيل بناه

(1) (صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، من بنى مسجدًا لله تعالى، رقم الحديث: 533).

أو نهرًا أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته»[1]. فمن يبني المسجد يمكنه أن يكون سببًا في نشر العلم وتخريج الولد الصالح له ولغيره منه وتوريث المصحف بإيداعه فيه وإخراج صدقة على روادها من الفقراء.

الدور المفقود.. كيف يعود

كيف نعيد للمسجد دوره المفقود، كيف يعود كاملًا غير منقوص، وإن له لدورًا لا ينكره أحد في تخريج اللبنات المؤمنة التي تبنى بها الأمة، وانظر حولك لترى ما حلّ بساحة أمتنا من أمراض ظاهرة وباطنة، رغم وجود العديد من المساجد وارتياد الكثيرين لها للصلاة فيها، لكن المساجد - إلا قليلًا منها - لما فقدت أهم أدوراها في التربية ظهرت هذه الأمراض وكثرت، فظهر العقوق للنفس والأهل والناس والمجتمع، فهناك من يسرق ويغش سرًّا وعلنًا، ومن يرهب الآمنين ويستحل دماءهم ببلطجته وإرهابه، ومنهم من لا يحفظ حرمة بلده فيخربه ويفسد فيه ولا يصلحه ولا يحافظ على حرمة ممتلكاته، ومنهم من لا يتورع عن أكل الحرام والتعدى على الحرمات جهارًا نهارًا، ومنهم من يتهاون في أداء العبادات، ويخوض في أعراض الناس قذفًا وسبًّا وتشهيرًا، ومنهم من لا يحافظ على عرض أخته المسلمة بل يشارك في هتكه، ومَن لا تقتنع بأوامر الله فتنزع عنها حجاب الطاعة والعفة والطهارة، ومَن تتعرض

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، إن مما يلحق المؤمن من عمله، رقم الحديث: 242، وحسنه الألباني).

للرجال في الطرقات متبرجة. وبالرغم من وجود الخير المقابل لهذا الشر إلا أننا كأمّة الدعوة والبلاغ والهداية علينا أن نتخلص ما استطعنا من هذه الأمراض ليكون لنا التأثير الحقيقي على غيرنا، ومن أجل ذلك وجب على المسئولين على بيوت الله أن يعيدوا لهذه المساجد دورها الكبير في إصلاح النفوس وإصلاح البيوت والمجتمعات، وأن يتحينوا لذلك كل الفرص والمواسم والمناسبات لتوعية الناس بذلك، فقد كدنا نفتقده في كثير من مساجدنا هذه الأيام، ومن أبرز تلك المناسبات وأهمها العيد الأسبوعي للمسلمين، يوم الجمعة؛ حيث الاجتماع الأخوي والموعظة الأسبوعية الجماعية المتمثلة في خطبتيها، وهي تحتاج إلى إعادة ترتيب من جديد، لتخدم الأهداف في تخريج الأجيال المؤمنة حقًّا، وعلاج قضايا الأمة وتحسين أدائها وتقويم أخلاقها وتزكية نفوسها من خلال خطبة الجمعة، لذا تتطلب أن يكون الإمام حصيفًا ملمًّا بالواقع من حوله، يعيش عصر الناس ويعرف كيف يدخل بموعظته قلوبهم، فيرتب الأولويات عند اختيار موضوع الخطبة حسب الحاجة القائمة، بحيث يتعرض فيها لما يصلحهم، يركز على الإيجابيات، ويذكر السلبيات بأسلوب راقٍ غير منفِّر، ويتحرى صحة الأحاديث التي يستدل بها، ولا يجرح أحدًا بعينه، بل يتبع منهج النبي ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»[1].

(1) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل ما بال فلان، رقم الحديث: 4788، وصححه الألباني).

خطبة الجمعة ودورها في الإصلاح الشامل

وحبذا لو وضع كل إمام خطته لخطبة الجمعة، في صورة جدول سنوي أو دوري مع محاولة أن تلائم خطبته واقع المسلمين في مكانه، وتسد احتياجاتهم من مختلف النواحي، إيمانيًّا، واجتماعيًّا، وتربويًّا، على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع، ذاكرًا في خطته الأهدافَ التي يريد تحقيقها، والمفاهيم التي يريد تصحيحها أو إضافتها، والقيم التي يريد إحياءها، والأخلاق التي في حاجة أن تحسن من خلال السلبيات التي يرصدها في حياة الناس وواقع معيشتهم، ثم يعدّ الموضوعات التي تخدم هذه الأهداف وتحققها، ولا يغفل أوقات المناسبات كشهر رمضان والحج وعاشوراء ومولد النبي ﷺ وهجرته، وبداية السنة الجديدة، والأجازات، والصيف، وبعض المناسبات الخاصة بغيرنا، والتي يمارسها بعض المسلمين كالكريسماس، ويوم الحب، ويوم الأم، وهكذا، ويحاول الخطيب ربط الأحداث الجارية بما يخدم أهداف خطبته، ومن هنا كانت أهمية تأهيل الأئمة والدعاة وإرشادهم وتوجيههم حتى يؤتي المسجد أكله وثماره. ويمكن تلخيص هذه الأهداف بصفة عامة في:

1 – تصحيح العقيدة.

2 – تعزيز المفاهيم الصحيحة، وتصحيح الخاطئة منها، وإضافة الجديد إليها.

obeikandl.com

3 – تربية النفس وتزكيتها.

4 – تعزيز جانب الأخلاق الحميدة والآداب الإسلامية، والتحذير من الأخلاق السيئة.

5 – الإسهام في معالجة المشكلات التي تطرأ على الساحة أسريًّا واجتماعيًّا.

6 – تقوية الأسرة وبيان دورها ومهمتها.

7 – إيجاد جيل صالح واعٍ يجمع بين أصالة الدين والحضارة المعاصرة.

8 – تعزيز جانب الأخوّة والهوية والمواطنة والدور المنوط بالمسلم في مجتمعه.

9 – اغتنام المناسبات المختلفة في حينها وتطبيقها على الواقع المعاصر وتطويعها لتحقيق هذه الأهداف.

obeikandl.com

(12)
«لا هجرة بعد الفتح»

كانت الهجرة - ولا زالت - من وسائل البحث عن أسباب الحياة الطيبة السعيدة التي يتمناها كل مهاجر، حتى إن الطيور تنشد الهجرة هي الأخرى، ولها مواسم وأوقات في حياتها البسيطة! وإن الناظر إلى تاريخ البشرية منذ القديم يجد أن الهجرة تشكل جزءًا حيويًّا مهمًّا من حياة البشر وإن اختلفت أشكالها وتنوعت أسبابها؛ فالكل أولًا وأخيرًا غالبًا ما ينشد بها تحقيق الخير والنفع له أو لغيره.

الأنبياء.. والهجرة

وقد كانت الهجرة ما قبل فتح مكة مطلوبة وفريضة على كل مسلم، بعد أن هاجر النبي محمد ﷺ منها إلى المدينة بأمر من الله عز وجل، ولم تكن هجرته حدثًا جديدًا أو مبتدعًا فقد هاجر من قبله إخوانه من الأنبياء، فهاجر سيدنا إبراهيم وزوجه سارة وابن أخيه سيدنا لوط عليهما السلام.. قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1]. قال قتادة: الذي قال: «إني مهاجر إلى ربي» هو إبراهيم عليه السلام، هاجر من

(1) (سورة العنكبوت، الآية: 26).

كوثا وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران، ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة. وقال الكلبي: هاجر من أرض حران إلى فلسطين وهو أول من هاجر من أرض الكفر. وقال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة. وقيل: الذي قال: «إني مهاجر إلى ربي» لوط عليه السلام[1].

كما هاجر سيدنا موسى عليه السلام من مصر متوجهًا نحو مدين طلبًا للأمن وخوفًا من ظلم فرعون وملئه. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[2]. وذلك لما أخبره ذلك الرجل المؤمن بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة «فخرج منها خائفًا يترقب» أي يتلفت «قال رب نجني من القوم الظالمين» أي من فرعون وملئه[3].

« لا هجرة بعد الفتح »

أما هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة فكانت فتحًا ونصرًا للإسلام والمسلمين، إذ صار لهم دولة تجمعهم بإخوانهم، وأصبح لهم قوة، ومُنعوا

(1) (تفسير القرطبي، ج13، ص312)

(2) (سورة القصص، الآية: 21 – 22).

(3) (مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ج3).

بأهل تلك الدار الطيبة، وصدق الله وعده حين قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]. فمنّ الله عليه بالفتح المبين لمكة التي خرج منها مهاجرًا خائفًا متخفيًا، فتغير الحال، وها هو يرجع إليها ليدخلها فاتحًا ظافرًا، وبينما هو في الطريق يلقاه آخر المهاجرين إلى المدينة عمه العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - وقد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا. لتنقطع بذلك الهجرة من مكة.

كما قدم إليه بعد الفتح مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بن مسعود، وقال له: هذا مجالد يبايعك على الهجرة. قال النبي ﷺ له: «لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن أبايعه على الإسلام»[2]. أي أصبحت الهجرة غير واجبة بعد فتح مكة؛ لأن مكة أصبحت دار إيمان، وقد عز الإسلام وظهر، وكانت قبل ذلك واجبة، ليتخلص المسلمون من الأذى، ولتجتمع قواهم في المدينة، مقر دولة العدالة والحق.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[3]. قال الخطابي وغيره: كانت الهجرة

(1) (سورة القصص، الآية: 85).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، لا هجرة ولكن جهاد ونية، رقم الحديث: 2913).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، أي العمل أفضل؟ قال الصلاة على ميقاتها، رقم الحديث: 2631).

فرضًا في أول الإسلام على من أسلم لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم إلى الاجتماع، فلما فتح الله مكة دخل الناس في دين الله أفواجًا؛ فسقط فرض الهجرة إلى المدينة، وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدو. وقال أيضًا: كانت الهجرة أي إلى النبي ﷺ في أول الإسلام مطلوبة، ثم افترضت لما هاجر إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين، وقد أكد الله ذلك في عدة آيات حتى قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾[1]. فلما فتحت مكة ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل سقطت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب. وكانت الحكمة في وجوب الهجرة على من أسلم ليسلم من أذى ذويه من الكفار؛ فإنهم كانوا يعذبون من أسلم منهم إلى أن يرجع عن دينه، وفيهم نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ الآية[2]، وهذه الهجرة باقية الحكم في حق من أسلم في دار الكفر وقدر على الخروج منها[3].

---

(1) (سورة الأنفال، الآية: 72).

(2) (سورة النساء، الآية: 97).

(3) (فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والنية).

«لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة»

وعن عبد الرحمن بن أبي عوف عن أبي هند عن معاوية، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[1]. وفي هذا الحديث دلالة على أن الهجرة غير منقطعة. فكيف نجمع بين هذا الحديث وقوله ﷺ «لا هجرة بعد الفتح»؟

اختلف العلماء في الجمع بينهما:

فقال الخطابي في المعالم: كانت الهجرة في أول الإسلام فرضًا ثم صارت مندوبة، وذلك في قوله تعالى «ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة» نزل حين اشتد أذى المشركين على المسلمين بمكة، ثم وجبت الهجرة على المسلمين عند انتقال رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمروا بالانتقال إلى حضرته ليكونوا معه فيتعاونوا ويتظاهروا إن حزبهم أمر وليتعلموا منه أمر دينهم. وكان عظم الخوف في ذلك الزمان من أهل مكة، فلما فتحت مكة ونجعت بالطاعة زال ذلك المعنى وارتفع وجوب الهجرة وعاد الأمر فيها إلى الندب والاستحباب، فالهجرة المنقطعة هي الفرض والباقية هي الندب.

(1) (سنن أبي داود، كتاب الجهاد، لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، رقم الحديث: 2479، وصححه الألباني).

obeikandl.com

وفي شرح السنة: يحتمل الجمع بأن يكون قوله "لا هجرة بعد الفتح" أي من مكة إلى المدينة، وقوله "لا تنقطع" أي من دار الكفر في حق من أسلم إلى دار الإسلام. انتهى[1].

الهجرة باقية إلى قيام الساعة

وعلى هذا؛ فالهجرة باقية إلى يوم القيامة، إذ يوجد من أسبابها ما يدفع الناس إليها مع التغيير المستمر في حياة البشر جغرافيًّا وثقافيًّا وأمنيًّا واقتصاديًّا، وقد روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم»[2]. وهي باقية كذلك وإن اختلفت أشكالها بدليل قوله ﷺ: «ولكن جهاد ونية». (فقد قال الطيبي وغيره: والمعنى أن الهجرة التي هي مفارقة الوطن التي كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية، وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة كالفرار من دار الكفر والخروج في طلب العلم، والفرار بالدين من الفتن، والنية في جميع ذلك)[3].

---

(1) (عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت).

(2) (سنن أبي داود، كتاب الجهاد، ستكون هجرة بعد هجرة، رقم الحديث: 2482، وصححه الألباني).

(3) (تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، الهجرة على من أسلم، ص178).

obeikandi.com

الهجرة بدنية.. وقلبية

وقد تكون الهجرة بالانتقال بالبدن والجسد من مكان إلى مكان آخر، وهو ما يسمى بالهجرة البدنية، كما حدث في الهجرة من مكة إلى المدينة، وهجرة الدعاة والعلماء لنشر الدين والدعوة إليه كما كان من مصعب بن عمير ومعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري، وما يحدث من هجرة الدعاة من علمائنا في هذه الأيام للتعريف بالإسلام، أو الهجرة لطلب العلم. ومن الهجرة البدنية أيضًا الهجرة لطلب الرزق كهجرة المسلمين قديمًا للتجارة في البلاد الأخرى، التي كانوا سببًا في انتشار الإسلام بها كأندونيسيا وغيرها.

وقد تكون الهجرة قلبية وفعلية كما جاء عن عبد الله بن عمرو، قال: (قال رجل: يا رسول الله، أي الهجرة أفضل؟ قال: «أن تهجر ما كره ربك»[1]) ومنها إنكار المنكر بالقلب، أو تغيير المرء من حاله وتصحيحه كالهجرة من الشرك إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن البدعة إلى السنة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن الاستضعاف إلى التمكين، ومن العزلة إلى الانفتاح.

---

(1) (سنن النسائي، كتاب البيعة، أن تهجر ما كره ربك عز وجل، رقم الحديث: 4165، وصححه الألباني).

وقد تجتمع هجرة البدن مع هجرة القلب كما كان من سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي ...﴾[1]. وقد هاجر وذهَبَ إلَى الأرض المُقدَّسَة، وكهجرة أهل الكهف كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[2]. قال ابن كثير في تفسيره: أي وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضًا بأبدانكم فأووا إلى الكهف يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، ويهيئ لكم من أمركم الذي أنتم فيه أمرًا ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هربًا إلى الكهف فأووا إليه[3].

(1) (سورة مريم، الآية: 48).

(2) (سورة الكهف، الآية: 16).

(3) (تفسير ابن كثير، ج5، ص142).

obeikandl.com

(13)
اهجـُر ما نهى الله عنه

حين نسمع حديثًا عن إخواننا الذين سبقونا بالإيمان من المهاجرين والأنصار أو نقرأ في سيرتهم العطرة التي تزخر بها كتب السير، نرى مكانهم في دين الله عِلمًا وعملًا، ومنهجًا ودستورًا، ودعوة واتباعًا، وتحاكمًا وتطبيقًا، وكيف أنهم أحبوا الله ورسوله حبًّا شديدًا جعل العمل في سبيله سهلًا وهيّنًا، والبذل لتحقيقه إلى نفوسهم محببًا، فإذا بنا نغبطهم على تلك الحال، وتطير أفئدتنا شوقًا إليهم وتتمنى لقياهم، وتشرئب الأعناق نظرًا إلى مكانتهم ومنزلتهم التي تبوءوها، فهم الأعلام بحق، وهم النجوم الزواهر التي تستحق أن تتوَّج للفوز بكأس الإيمان بعد أن غلبوا الشهوات وانتصروا على المحرمات وحافظوا على صحة قلوبهم بهجر ما نهى الله عنه، فعاشوا وماتوا وهم مهاجرون إلى الله في كل لحظة وطرفة عين.

الهجرة باقية إلى يوم القيامة

وحينما تهب علينا نسمات الهجرة ونتنسم عبير المهاجرين؛ نتمنى أن ينال كل منَّا شرف هذه الهجرة وثوابها، ونأسَى على فواتها علينا، وقليل منّا من يتذكر أن الفرصة متاحة أمامه لينال هذا الشرف ويكون في عداد

المهاجرين إلى الله تعالى بنفسه وقلبه وعقله إن لم يكن بجسمه وبدنه؛ حيث انقطاع الهجرة البدنية إلى مكة بفتحها، لكن بقاء الهجرة إلى الله بالقلب وبالعمل، وعدم انقطاعها إلى يوم القيامة يحقق لكل مهاجر مطلبه في الهجرة إلى ربه عز وجل بترك نواهيه. وإن من هاجر ببدنه دون قلبه لا يستوي مع من هاجر مخلصًا في سبيل الله، وإلا كانت هجرة (مهاجر أم قيس) كهجرة أبي بكر الصديق، وهذا لا يكون بحال، فالأول هاجر من أجل امرأة، أما أبو بكر - رضي الله عنه - فقد هاجر لله أعظم هجرة إذ جمع بين هجرة البدن بمفارقة المشركين، وهجرة القلب بترك ما نهى الله عنه. ونبينا محمد ﷺ هو سيد المهاجرين، يبشرنا جميعًا فيقول: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[1].

قيل: (خص المهاجر بالذكر تطييبًا لقلب من لم يهاجر من المسلمين لفوات ذلك بفتح مكة، فأعلمهم أن من هجر ما نهى الله عنه كان هو المهاجر الكامل، وهذه الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة. فالباطنة ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة الفرار بالدين من الفتن. وكأن المهاجرين خوطبوا بذلك لئلا يتَّكِلوا على مجرد التحول من دارهم حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيه، بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه)[2].

(1) (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم الحديث: 10)

(2) (فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الرقاق، المهاجر الكامل).

الهجرة هجرتان

لذا يقول ابن القيم – يرحمه الله – : الهجرة هجرتان: هجرة بالجسم من بلد إلى بلد. والهجرة إلى الله ورسوله؛ فهذه هي الهجرة الحقيقية، وهجرة الجسد تابعة لها وهي تتضمن (من) و(إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه سبحانه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. وهذا بعينه معنى الفرار إلى الله كما قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1]. والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه، والهجرة تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه. وأصلها: الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لا بد أن يكون ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه، (أي أحب إلى الله) فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر.. وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب دواعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علمًا ولا يتحرك لها إرادة[2].

---

(1) (سورة الذاريات، الآية: 50).

(2) (الرسالة التبوكية، زاد المهاجر إلى ربه، للإمام ابن قيم الجوزية).

الهجرة الواجبة

وقد بيَّن النبي ﷺ هذه الهجرة ورغَّب فيها، وبيَّن أنها هي الهجرة الحقيقية التي هي الدافع الأساس للهجرة البدنية إذا اضطر المسلم لأن ينتقل ببدنه حال الفتنة، وهي هجرة لا تخلو منها حياتنا اليومية بما يستجد فيها من أحداث وتحديات، وفتن ومغريات. وقد جاء ذكر ذلك بصيغ متعددة وكلها تصب في معين واحد وهو هجرة كل ما يغضب الله عز وجل. ومن ذلك قول النبي ﷺ: «المهاجر من هجر السيئات..»[1]. وقوله: «وأفضل المهاجرين من هجر ما نهى الله تعالى عنه، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل»[2]. وقوله: «والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[3]. وسأله سائل قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: فما الهجرة؟ قال: تهجر السوء»[4]. وفي رواية النسائي: «فأي الهجرة أفضل؟ قال: من هجر ما حرم الله عز وجل»[5]. ومن هنا قال العزُّ بن عبدالسلام:

---

(1) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 198).

(2) (رواه الطبراني، وصححه السيوطي، وصححه الألباني في صحيح الجامع).

(3) (صحيح ابن ماجه، رقم الحديث: 3193، وصححه الألباني).

(4) (مسند أحمد بن حنبل، مُسْنَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ، حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ، رقم الحديث: 16691، وأخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة).

(5) (سنن النسائي، كتاب الزكاة، إيمان لا شك فيه، رقم الحديث: 2526، وصححه الألباني).

obeikandl.com

(الْهِجرة هجرتان: هجرة الأوطان، وهجرة الإثْم والعدوان، وأفضلهما هجرة الإثم والعدوان؛ لِما فيها من إرضاء الرحمن، وإرغام الشيطان)[1].

الهجرة إلى العبودية الخالصة لله

وأعظم الهجرات وأهمها الهجرة إلى عبودية الله الخالصة، والعبودية اسم جامع لمراتب أربع تبنَى عليها، كما ذكر الإمام ابن القيم في مدارجه، وهي التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح. فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله به سبحانه عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله. وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره، وتبليغ أمره. وعمل القلب كالمحبة له والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة. وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك[2].

(1) (موسوعة نضرة النعيم، ج8، ص440).

(2) (انظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم، ج1، ص120).

من الغفلة إلى اليقظة والانتباه

ومن الهجرة الواجبة علينا؛ هجر غفلة القلب إلى يقظته وانتباهه، وسماعه وتفكره، وقد أشار الله إلى إعراض القلب وغفلته وانشغاله، فقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ..﴾[1]. أي ساهية معرضة عن ذكر الله، متشاغلة عن التأمل والتفهم[2].

ولا تتحقق تلك الهجرة إلا بالذكر وحضور القلب عند سماعه وتدبر القرآن والنظر في ملكوت الله تعالى والإكثار من ذكر الموت.. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3] فقلبه حاضر فيما يسمع، وكَنَّى بالقلب عن العقل لأنه موضعه. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة، فعبَّر عن النفس الحيّة بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها. وفي التنزيل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[4]، وقال يحيى بن معاذ: القلب قلبان؛ قلب محتشٍ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمرٌ من الأمور الآخرة لم يدرِ ما يصنع، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمرٌ من أمور

(1) (سورة الأنبياء، الآية: 1 – 3).
(2) (تفسير القرطبي ج11، ص179).
(3) (سورة ق، الآية: 37).
(4) (سورة يس، الآية:79).

الدنيا لم يدرِ ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة[1]. قال ابن القيم: وهذا السماع الحيّ هو سماع المقربين، أي سماع القرآن إدراكًا وفهمًا وتدبرًا وإجابة، وكل سماع مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه فهو هذا السماع. فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، ودلالة على رشد، وردًّا على ضلالة، وإرشادًا عن غي، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًّا على تقى، وجلاءً لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاءً ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشفَ شبهة، وإيضاحَ برهان، وتحقيقَ حق، وإبطالَ باطل[2].

هجرة ممنوعة

وإذا كانت الهجرة إلى الخير واجبة؛ فإن العكس ممنوع، أي هجر الخير إلى الشر كانْطواء القلب على النفاق بهجر الإيمان باطنًا وإن بدا في الظاهر مسلمًا، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[3]. قيل: «في قلوبهم مرض» أي بسكونهم إلى الدنيا وحبهم

(1) (انظر تفسير القرطبي ج17، ص22).

(2) (تهذيب مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية – هذَّبه عبد المنعم صالح العلي العزي).

(3) (سورة البقرة، الآية: 8 – 10).

لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها[1]. ومن هنا وجب عليهم أن تهجر قلوبُهم النفاقَ الجاثم عليها إلى الإخلاص والإيمان.

ومن الهجرات الممنوعة هجْر المسلم لأخيه المسلم، قال ﷺ: «ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[2] وقال: «من هجر أخاه سنة فهو كسَفْك دمه»[3]، كما يُمنع أن يبطن في قلبه الشر له، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: »يا بني، إن قدرتَ أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل. ثم قال لي: يا بني، وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة»[4].

فلنهاجِر إلى الله دائمًا

ألا يجدر بنا الآن أن نعيش حياتنا مع الهجرة الحقيقية التي تجب على كل مسلم ومسلمة؟ نعيشها ونحن في بيوتنا وبين أهلينا وإخواننا، فإن في واقعنا - ومع الأسف الشديد - أعمالًا غير صالحة يجب أن تُهجر، ومفاهيم مغلوطة تحتاج أن تُصحح، وقيمًا ضائعة في حاجة أن تعود.

(1) (تفسير القرطبي ج1، ص192).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الأدب، لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه، رقم الحديث: 5726).

(3) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه، رقم الحديث: 4915، وصححه الألباني).

(4) (سنن الترمذي، كتاب العلم، من أحيا سنة من سنتي قد أميتت، رقم الحديث: 2678. ضعفه الألباني).

فهل نرقى بأنفسنا ونضنُّ بها على أن تعصي خالقها وواهبها الحياة والرزق. فمن الهجرة الواجبة هجر القلب للمنكر وإنكاره وكراهيته واجتنابه، وتغييره بالطرق المشروعة، وإصلاح النفس بالتغيير الإيجابي المثمر، وهجر حب المنكر إلى حب المعروف، وهجر حب السيئ إلى حب الحسن، وهجر اللذات المحرمة إلى المباحة. وما أشد حاجتنا جميعًا إلى هجر السيئات والسوء، والذنوب والمعاصي، وما حرم الله وما يكره، فيكون الهجر عامًّا وخاصًّا لكل ما هو سيئ، فيحصل التحول من اتباع الأهواء إلى اتباع السنة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن التبرج والسفور إلى الحشمة والحجاب، ومن قطيعة الأرحام إلى صلتها، ومن الفرقة والتنازع إلى الوحدة والائتلاف، ومن التخريب والإفساد إلى العمل والإصلاح، ومن الكذب والخيانة إلى الصدق والأمانة، ومن الأثرة والبخل إلى الإيثار والجود، ومن الغلو والتطرف إلى الوسطية والاعتدال، ومن الانتقام والتشفي إلى العفو والتسامح، ومن التواكل إلى التوكل، ومن أكل الحرام إلى أكل الحلال، ومن الإصرار على الذنب إلى التوبة والندم، ومن الاعوجاج عن الصراط إلى الاستقامة عليه، ومن التعاون على الإثم والعدوان إلى التعاون على البر والتقوى، ومن الذل إلى العزة، ومن الظلم إلى العدل، ومن الغلظة إلى اللين، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العقوق إلى البر، وبالجملة «هجر ما نهى الله عنه» إلى ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال والاعتقادات الظاهرة منها والباطنة، وهذه هي هجرتنا الحقيقية التي تصلح بها مجتمعاتنا، ونصير بها من المهاجرين المؤمنين.

(14)
نشهدُ أنه قد أدّى الأمانة

نبينا محمد ﷺ، المهاجر إلى الله، المبلغ عن رب العزة سبحانه وتعالى، حمل أمانة البلاغ الثقيلة فما وهَن وما ضعف، بل أدى الأمانة خير أداء وبلغ الرسالة أتم تبليغ، وتركنا على بيِّنة من ديننا، وواعدنا إن اتبعناه أن يلقانا على حوضه الشريف، وأن يسقينا بيده الشريفة شربة منه لا نظمأ بعدها أبدًا. لقد قدم لنا في هجرته المباركة خير قدوة وأحسن أسوة وتركنا على طريق واضح لا لبس فيه بعد أن أرسى قواعد التوحيد في نفوس أصحابه وبيّنها، وأخذ منهم العهد على حمل الرسالة من بعده ودعوة الناس إليها، اقتداء به ﷺ، فكنتُ أنا وأنت وغيرنا من المسلمين من ثمرات الوفاء بهذا العهد المبارك، إذ فتحوا البلاد وفتح الله مع فتحها القلوب فآمنت ودانت بالإسلام لرب العباد. لم يهاجر نبينا ﷺ من مكة إلا بعد أن استنفد كل جهده في نصح أهلها ودعوتهم إلى الله، لكن المشركين فيها لم يتخطوا ذلك الامتحان، امتحان الإيمان واليقين، ولم ينجحوا فيه أو يحصلوا على أدنى درجة تؤهلهم لهذا النجاح، بل رسبوا وسقطوا بكل المقاييس التي يعرفها البشر، ومع ذلك لم ييأس ﷺ منهم، بل ظل على عهده وصبره في

دعوتهم حتى خضعت له الرقاب وفتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وجاءه النصر والفتح المبين.

مع النبي الحبيب ﷺ

لقد كانت رحمته ﷺ رحمة عامة، رحمة امتدت حتى وصلت إلى مخالفيه ومكذبيه، "لما كسرت رباعيَّته ﷺ، وشُجّ في جبهته فجعلت الدماء تسيل على وجهه قيل: يا رسول الله، ادع الله عليهم. فقال ﷺ: «إن الله تعالى لم يبعثني طعّانًا ولا لعّانًا، ولكن بعثني داعية ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1]. إنه يتعامل مع الناس بتواضع عظيم مع أنه أفضل الخلق، ويبين لهم أنه بشر مثلهم لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا وإن كان نبيًّا مرسلًا، وقد ضرب لهم المثل في هجرته بأخذ الأسباب مع التوكل على الله، ومنها حفظ السرّ والسرّية في ما يجب أن يظل سرًّا، وتجهيز الراحلة لسفره وهو الذي ركب البراق في رحلة الإسراء والمعراج، واتخاذ الدليل وهو – فداه نفسي – خير دليل، وقد مكث بالغار مختبئًا عن عيون المشركين وهو نبي يوحى إليه من ربه مجاب الدعوة لو أقسم على الله تعالى لأبره، ولو دعاه لاستجاب له. بذل النبي ﷺ في سبيل الله وضحى بكل غال، لقد ترك موطنه مكة الذي يحبه ونشأ فيه، تركه طاعة لله، تركه على حبه، يعلن

(1) (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، بَابٌ في حب النبي ﷺ، رقم الحديث: 1372. ضعفه الألباني).

ذلك فيقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ، والله لولا أني أخرجت منك ما خرجت»[1]. وقال: «ما أطيبَك مِن بلد وأحَبَّك إليَّ ولولا أنَّ قومي أخرَجوني منكِ ما سكَنْتُ غيرك»[2].

فحبُّ الله يعلو كل حب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[3]. وهو لم يخرج من بين ظهراني المشركين غضبًا لنفسه بل امتثالًا لأمر ربه، وإلا لما لبث فيهم ثلاث عشرة سنة مع الأذي والتنكيل والتعذيب صابرًا محتسبًا داعيًا إلى الله. وقد تتلمذ على يديه أبطالُ وفدائيو الهجرة، أبو بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب، وأسماء بنت أبي بكر، وعبد الله بن أبي بكر، رضي الله عنهم جميعًا وجزاهم عنا خيرًا، وقد أحبوا النبي ﷺ حبًّا فاقَ حب النفس والمال والولد.

سيد المهاجرين إلى الله

لم يهاجر ﷺ من أجل دنيا ينالها أو رزق يحصل عليه أو عمل يطلبه، ولو شاء لفعل، لكنه هاجر لله، وفي سبيل الله، لقد خُيّر فاختار الآخرة، وفي مسند الإمام أحمد: «جلس جبريل إلى النبي فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة،

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلي، رقم الحديث: 3108، وصححه الألباني).

(2) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل مكة، رقم الحديث: 3926، وصححه الألباني).

(3) (سورة البقرة، الآية: 165).

فلما نزل قال: يا محمد! أرسلني إليك ربك؛ أملكًا جعلك، أم عبدًا رسولًا؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد! فقال رسول الله: بل عبدًا رسولًا»[1].

هاجر الحبيب ﷺ، لتحيا بهجرته خير الأمم، وتنشأ بها دولة الإسلام في المدينة، ويفتح الله معها قلوبًا غلفًا، في مكة وفي غيرها، فإذا بالوفود تتوافد عليه وفدًا تلو الآخر، ويدخل الناس في دين الله، ويتم الله تعالى هذا الأمر كما أخبر نبيه ﷺ «والله ليتمنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[2]. ويتحقق وعد الله، فيبدل خوف أصحابه أمنًا، أخرج الحاكم عن أبيّ بن كعب - رضي الله عنه - قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؛ فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[3]. نصره الله على أعدائه وقد حاولوا قتله، فأنجاه من شرهم وأظفره عليهم ومكّن له

(1) (صحيح الترغيب، رقم الحديث: 3280، وصححه الألباني).

(2) (صحيح البخاري، كتاب المناقب، يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، رقم الحديث: 3416).

(3) (سورة النور، الآية: 55).

ولمن معه في الأرض مصداقًا لوعده: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[1]. قال السدي: لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها، وهكذا نصر الله نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرّت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكمالها ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز وجل ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا، وفتحوا البلاد والرساتيق - المواضع التي فيها زرع وقرى أو بيوت مجتمعة - والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام

(1) (سورة غافر، الآية: 51).

الساعة، ولهذا قال تعالى «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل[1].

فالله القوي يدافع عن أوليائه وينصرهم، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالحرب»[2].

ما لي وللدنيا

عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه. قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها"[3]. وكان "يبيت الليالي المتتابعة طاويًا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان عامة خبزهم خبز الشعير"[4].

(1) (تفسير ابن كثير ج7، ص150).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، إن حقًّا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه، رقم الحديث: 6137).

(3) (سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال..، رقم الحديث: 2303، قال الترمذي: حسن صحيح).

(4) (مسند أحمد – ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس، يبيت الليالي المتتابعة طاويًا، رقم الحديث: 2303، حسنه الألباني).

obeikandl.com

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة، من طعام بر ثلاث ليال تباعًا، حتى قبض»[1]. وقالت: «لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين»[2]. وقالت: «ما كان يبقى على مائدة رسول الله ﷺ من خبز الشعير قليل ولا كثير» وفي رواية: «ما رفعت مائدة رسول الله ﷺ وعليها فضلة من طعام قط»[3]. و «إن فاطمة - رضي الله عنها - ناولت رسول الله ﷺ كسرة من خبز شعير، فقال لها: «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام»[4]. وأخرج مسلم عن سماك قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: «ألستم في طعام وشراب ما شئتم؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل - أردأ التمر - ما يملأ به بطنه»[5]. وعن أبي طلحة - رضي الله عنه - قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين»[6]. وقد «نام رسول الله ﷺ

(1) (صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، ما أكل النبي ﷺ على خوان، رقم الحديث: 5100).

(2) (صحيح مسلم، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال...، رقم الحديث: 2974).

(3) (المعجم الأوسط للطبراني، بَابُ الْأَلِفِ، مَنِ اسْمُهُ أَحْمَدُ، رقم الحديث: 910).

(4) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، هذا أول طعام أكله أبوك من ثلاثة أيام، رقم الحديث: 12811).

(5) (صحيح مسلم، ما شبع نبي الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعًا، رقم الحديث: 2977).

(6) (سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، ما جاء بك يا أبا بكر...، رقم الحديث: 2374، ضعفه الألباني).

على حصير فأثر في جنبه، فقالت له عائشة - رضي الله تعالى عنها -: يا رسول الله هذا كسرى وقيصر في ملك عظيم وأنت رسول الله لا شيء لك؟ تنام على حصير وتلبس الثوب الرديء؟ فقال لها رسول الله ﷺ: يا عائشة! لو شئت أن تسير معي الجبال ذهبًا لسارت، ولقد أتاني جبريل بمفاتيح خزائن الدنيا فلم أردها، ارفعي الحصير، فرفعته فإذا تحت كل زاوية منها قضيب من ذهب ما يحمله الرجل، فقال: انظري إليها يا عائشة، إن الدنيا لا تعدل عند الله من الخير قدر جناح بعوضة، ثم غارت القضبان»[1].

وقد صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، فلا إله إلا الله له الفضل والمنة، وجزى نبيه خير الجزاء فقد وفّى وأدّى وصبر صبرًا جميلًا، فكان النصر من الله، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها وقيض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ[3].

---

(1) (أبو نعيم، حلية الأولياء).

(2) (سورة الأنفال، الآية: 26).

(3) (انظر تفسير ابن كثير ج4، ص37).

فلله الحمد والفضل ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]، منّ علينا بالهداية.. ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

ونشهد أن نبينا وحبيبنا ﷺ قد أدى الأمانة ووفى، وقال لنا: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[3]، وترك لنا خير ميراث وقال: «تركتُ فيكم أيُّها الناس، ما إنِ اعتصمتم به، فلن تضلُّوا أبدًا: كتاب الله، وسُنَّة نبيِّه»[4].

---

(1) (سورة آل عمران، الآية: 164).

(2) (سورة الحجرات، الآية: 17).

(3) (سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، قد تركتكم على البيضاء، رقم الحديث: 24، وصححه الألباني).

(4) (الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب العلم، خطبته ﷺ في حجة الوداع، ج1، رقم الحديث: 324)

obeikandl.com

(15)
"وإن موعدكم الحوض"

بعد أن ملأ الأرض نورًا وإشراقًا، وبعد أن أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، مات.. مات سيد الخلق، وسيد العُبّاد، وسيد المهاجرين إلى الله.. مات حبيبنا محمد ﷺ، وكان موته أعظم مصيبة تصاب بها الأمة وترزأ، ولا زالت، لكن عزاءنا قول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1]. وتسليتنا في مصابه هي انتظار اللقاء على حوضه، والتأهب للشرب من يده الكريمة ﷺ.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "شهدته يوم دخل المدينة فما رأيت يومًا قط، كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشهدته يوم موته، فما كان أقبح، ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم"[2].

مات الحبيب.. لكنه حيّ في قلوبنا، ورسالته وسنته تنير حياتنا، والموعد الحوض، واللقاء الأبدي السرمدي معه في جنات النعيم، لمن

---

(1) (سورة الرحمن، الآية: 27).

(2) (سنن الدارمي، بَاب فِي وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم، رقم الحديث: 88).

آمن به واتبع هديه، وسار على نهجه، ونصر دينه، ونشر سنته. نتذكره دائمًا فنرسل إليه سلامنا وصلاتنا عليه، فتبلغه حيث كنا، فيسلم علينا كما قال: "إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام"[1]. وقال:"ما من أحد يسلم عليّ، إلا ردّ الله عليّ روحي، حتى أردّ عليه السلام"[2].

وقد نقل لنا الصحابة رضوان الله عليهم تلك اللحظات الصعبة التي تُجري الدموع من مآقيها، لحظات وداع النبي ﷺ لهم قبل موته، إنها لحظات يشتاق فيها المؤمن للقاء نبيه ووداعه وسماع وصاياه، وما أصعب وداع الأحبة، وما أقسى ساعة الفراق. نتخيل أنفسنا ونحن في هذا الجمع من الصحابة، والنبي ﷺ ينظر إلينا ويعهد إلينا ويوصي بنا ويوصينا، ويعدنا اللقاء على حوضه ما تمسكنا بهديه ووفينا بعهده.. يا لها من لحظات يود المسلم فيها لو يفتديه بروحه ونفسه وماله حتى يسلم لنا ويظل معنا، لكن الله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة، وهو الذي يحيي ويميت، وهو القادر وعلى كل شيء قدير.

ولقد خُيِّر النبي ﷺ فاختار لقاء ربه.. اختار بعد أن أدى أمانته وبذل جهده وبلغ رسالته. اختار بعد أن رأى ثمرة جهاده ودعوته، وقد دخل الناس في دين الله أفواجًا، وليس اختيار العاجزين الذين يريدون أن يتخلصوا

(1) (سنن النسائي، كتاب السهو، إن لله ملائكة سياحين في الأرض... ، رقم الحديث: 1281، صححه الألباني)

(2) (سنن أبي داود، كتاب المناسك، ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي، رقم الحديث: 2041، وحسنه الألباني).

بالموت مما يصيبهم من بلاء، ويزعمون أن في موتهم الخلاص. اختار لأن قلبه معلق بالله ولا مكان للدنيا فيه، فقد عاش من أجل رسالة أتمها وأداها أحسن أداء، وها هو في طريقه لحسن الجزاء من ربه الكريم عز وجل.

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: "إن عبدًا خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده". فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به"[1].

ونزل نعيه عليه من عند ربه قرآنًا، فتنزلت الآيات تبين أنه قد تم بلاغه وكمل دينه وختمت الرسالات برسالته، وقد آن له أن يستريح في جوار ربه عز وجل بعد عناء السنين وشدة الحياة وشظف العيش. فليسبح بحمد ربه شكرًا، وليستغفره طمعًا في زيادة المنزلة والرفعة وعلو المكانة والدرجة.. قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾[2] عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

(1) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة، رقم الحديث: 3691).

(2) (سورة النصر).

قال رسول الله ﷺ "نعيت إليّ نفسي كأني مقبوض في تلك السنة"، وقال قتادة: والله ما عاش بعد ذلك إلا قليلًا، سنتين، ثم توفي ﷺ[1].وقال أبو هريرة رضي الله عنه: اجتهد النبي ﷺ بعد نزولها، حتى تورمت قدماه. ونحل جسمه، وقلَّ تبسمه، وكثر بكاؤه. وقال عكرمة: لم يكن النبي ﷺ قط أشد اجتهادًا في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها[2].

إلى الرفيق الأعلى

وها هو الحبيب ﷺ يلبي نداء ربه، ويرحب به.. يروي لنا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وينقل لنا هذه اللحظات العصيبة فيقول: "نعي إلينا حبيبنا ونبينا بأبي هو ونفسي له الفداء قبل موته بست، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمّنا عائشة، فنظر إلينا فدمعت عيناه، ثم قال: مرحبًا بكم، وحياكم الله، وحفظكم الله، آواكم الله، ونصركم الله، رفعكم الله، هداكم الله، رزقكم الله، وفقكم الله، سلمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم وأستخلفه عليكم، إني لكم نذير مبين، أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإن الله قال لي ولكم ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]

(1) (انظر تفسير الطبري ج24، ص667)

(2) (تفسير القرطبي ج20، ص200).

(3) (سورة القصص، الآية: 83)

وقال ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1] ثم قال: قد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى. أحسبه قال: فقلنا: يا رسول الله، فمن يغسّلك إذن؟ قال: رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى. قلنا: ففيم نكفنك؟ قال: في ثيابي هذه إن شئتم أو في حلة يمنية أو في بياض مصر. قال فقلنا: فمن يصلي عليك منا؟ فبكينا وبكى وقال: مهلًا، غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرًا، إذا غسلتموني ووضعتموني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري فاخرجوا عني ساعة، فإن أول مَن يصلي عليّ خليلي وجليسي جبريل ﷺ، ثم ميكائيل ﷺ ثم إسرافيل ﷺ ثم ملك الموت ﷺ مع جنوده، ثم الملائكة صلى الله عليهم بأجمعها، ثم ادخلوا عليّ فوجًا فوجًا فصلوا عليّ وسلموا تسليمًا، ولا تؤذوني بباكية. أحسبه قال ولا صارخة ولا رانة، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثم أنتم بعد، وأقرئوا أنفسكم مني السلام، ومن غاب من إخواني فأبلغوه مني السلام، ومن دخل معكم في دينكم بعدي فإني أشهدكم أني أقرأ السلام أحسبه، قال عليَّ وعلَى كل من تابعني على ديني من يومي إلى يوم القيامة. قلنا: يا رسول الله، فمن يدخلك قبرك منا؟ قال: رجال أهل بيتي مع ملائكة كثيرة يرونكم من حيث لا ترونهم"[2].

وتروي أمنا عائشة رضي الله عنها: أغمي على رسول الله ﷺ ورأسه

(1) (سورة الزمر، الآية: 60).

(2) (البحر الزخار بمسند البزار، من حديث ابن مسعود،مُرَّة الهمدانِيُّ عنعبد الله بن مسعودرقم الحديث: 1810).

في حجري، فجعلت أمسحه، وأدعو له بالشفاء، فلما أفاق، قال ﷺ:"لا، بل أسأل الله الرفيق الأعلى، مع جبريل، وميكائيل، وإسرافيل"[1].

طوبى لكل المؤمنين

نشهد الله عز وجل أننا رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، ونسأل الله أن نكون ممن أهل هذه البشارة، فعن أبي سعيد الخدري أن رجلًا قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك. قال النبي ﷺ: "طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني"[2].

لقد ودّ الحبيب ﷺ أن يرانا، وقال لأصحابه: "وددتُ أني قد رأيتُ إخواننا. قالوا: يا رسول الله، ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي. وإخواني الذين لم يأتوا بعد، وأنا فرطهم على الحوض"[3]. قالوا: يا رسول الله، كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك؟ قال: أرأيت لو كان لرجل خيل، غرّ محجلة[4]، في خيل بُهم دهم[5]، ألا يعرف خيله. قالوا: بلى.

(1) (صحيح ابن حبان، كِتَابُ التَّارِيخِ، بَابُ: مَرَضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم، رقم الحديث: 6741).

(2) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، طوبى لمن رآني وآمن بي ...، رقم الحديث: 11276، وصححه الألباني).

(3) (وأنا فرطهم: أي أنا أتقدمهم على الحوض أهيئ لهم ما يحتاجون إليه).

(4) (خيل غُرّ: بضم فتشديد جمع الأغر وهو الأبيض الوجه،والمحجل من الدواب التي قوائمها بيض).

(5) (خيل بُهم دهم:أي سُود لم يخلط لونها لون آخر).

قال: فإنهم يأتون يوم القيامة، غرلًا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض"[1]. وبشرنا حبيبنا وقال: "أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة.. والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة"[2].

الوداع الصعب.. ووصايا الحب

ودَّع النبي ﷺ أصحابه وأمته بعد أن بيّن لهم ما يتقون، إنه يريد صلاح هذه الأمة وينتظر الاجتماع بأفرادها في جنات الخلود، يوصيها وصايا المحب المشفق: "إن مما أخاف عليكم بعدي، ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها... وإن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة"[3]، "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم"[4]. ويدعو إلى الاتباع ويحذر من البدعة فيقول: "ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. أناديهم: ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقًا سحقًا"[5]. وروى عقبة بن عامر رضي الله عنه: صلى رسول

(1) (سنن النسائي، كتاب الطهارة، السلام عليكم دار قوم مؤمنين..، رقم الحديث: 150، وصححه الألباني).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، تحشرون حفاة عراة غرلًا، رقم الحديث: 6163).

(3) (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، أخوف ما أخاف عليكم..، رقم الحديث: 1052).

(4) (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا، رقم الحديث: 6061).

(5) (صحيح مسلم، كتاب الطهارة، إن حوضي لأبعد من أيلة من عدن، رقم الحدبث: 249).

الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثماني سنين، كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع إلى المنبر فقال: "إني بين أيديكم فرط، وإني عليكم لشهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا وتنافسوها". قال: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ[1]. وفي صحيح مسلم: "إني فرطكم على الحوض. وإن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة. إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا، فتهلكوا، كما هلك من كان قبلكم"[2].

هل نحن حقًّا نحب رسول الله ﷺ؟

سؤال يدعو للتعجب، ويستنكره مَن يسمعه، ويلومني عليه من يُسأله، فكلنا يحبه، إذ أن حب الله تعالى يستوجب حب نبيه ﷺ، ولِمَ لا نحبه؟ ألم يتحمل الأذى من أجل أن نهتدي، ألم يهجر وطنه ويهاجر ليحقق التمكين لنا في الأرض، ألم يجاهد بكل ما يستطيع ليبلغنا عن ربه أتم التبليغ. لكن الحقيقة أن الحب ليس بالادّعاء، وإنما علامة الحب أن يتأسى الحبيب بحبيبه في أخلاقه وأفعاله، وأن يسير على طريقه ويتلمس آثاره، وأن يفعل ما يحب، وقد ضرب لنا الحبيب- ﷺ- القدوة الحسنة في سلوكه وأقواله

(1) (صحيح البخاري، كتاب المغازي، هذا جبريل آخذ برأس فرسه، رقم الحديث: 3816).
(2) (صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، إني فرطكم على الحوض، رقم الحديث: 2296)

وأفعاله ومعاملاته؛ لنتخذ منها الأسوة في حياتنا، وكانت حياته كتابًا مفتوحًا لنا جميعًا، وما أمرنا بأمر إلا لنطيع وما نهانا إلا لننتهي، وما قال إلا لنسمع وما نسمع إلا لنعمل ونبلغ وندعو وننشر، وهو القائل: "بلغوا عني ولو آية"[1]. "رُبّ مبلغ أوعى من سامع"[2]. فحب الله يستلزم أن تحب نبيه حتى تكون مؤمنًا حقًّا كما قال ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..."[3]. وكما قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[4].

وقد روي أن المسلمين قالوا: يا رسول الله، والله إنا لنحب ربنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5].. قال ابن كثير في تفسيره: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادّعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في

(1) (صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها، رقم الحديث: 2374).

(2) (سنن الترمذي، كتاب العلم، نضر الله امرأ سمع منا...، رقم الحديث: 2657، حسن صحيح).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم الحديث: 16).

(4) (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده، رقم الحديث: 15).

(5) (سورة آل عمران، الآية: 31).

نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال "من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد" ولهذا قال "إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِب إنما الشأن أن تحَب. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"[1].

وقال سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة؛ وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبلغة[2].

(1) انظر تفسير ابن كثير ج2، ص32.

(2) تفسير القرطبي ج4، ص58.